البريد الالكتروني للمؤلف
yahqaissi@gmail. com

منْ لمْ يَقف على إشَاراتِنا لمْ تُرْشدهُ عِباراتُنا . . .

« الحَلاّج »

اغفِر لي يا ربّ

ما سيظهرُ للعَوام
في هَذا الكلام
منْ أضاليلَ وزنْدقات
وأحَابيلَ و لعناتٍ
سامِحْهُم على تفرّقهم
بعيداً عنكَ
في مداراتِ الحيرةِ
بينَ الشرائعِ والدياناتِ
والسّنن والعباداتِ
علّمني الصبرَ
وتشرّب الحكمة
وعلّمهم النجَاةَ
من الجهلِ
وسوء التدبير
أيها السَرمديّ
يا منْ لا تحدّه الشُموس
ولا تظلّله العَتمة
ارحمْ ما وضعت فيهم من هَوان

وثبّت ما بثثت فيّ من إشراقات
سُبحانك وأنتَ ترقبُ وترقّ
وتنظرُ وتعطفُ
ما بَلغنا من غضبكِ
غير ومَضاتٍ
ومن مسرّاتك غير نفحات
واقفاً سأظلّ ببابك
عسى تهطل عليّ سَبحَاتكَ
وحللَ رضاك
فأفوزُ بالأبدية . . .!

أمّا بعدُ . . .

فقد أوشكتُ على شفَا الهلاك ، من قوّة الأسرار ، وضعفِ البدن وتشتّتِ النفس ، وما لي طاقةٌ على البوحِ غير خطّ هذه الأوراق ، حتّى أتخفّف من ثقل الأحمال ، عَسى يأتي يومٌ بعد مفارقتي لهذه الحال ، فيقرأها أحدٌ ما ، فيضيف إليها أو ينقص كما يشاءُ . . ، ويستعيد معها روحي الهائمة التي تشظّت في ما خططتُ من الحروف . .!

كلّ صباحٍ

كنتُ أسيرُ من شارع « الحبيب بورقيبة » باتجاه « المدينةالعتيقة» متجاوزاً زحمة المُشاة ، و أبواقَ السياراتِ ، ورنينَ المترو ، وصليل عَجلاته على القضْبان الحَديد ، ورفرفة العصافير على الأشجار الكثيفة ، التي تتوّسطُ الشارع ، وثرثرةَ الجالسين في المقاهي والحَانات ، وأدخلُ في ضِيق« السوق العربي» المظلّل بالسُقوف ، حيثُ تتمازجُ دقّاتُ النَحّاسين ، ومناداة باعة الجلود ، ورائحة الدبّاغين ، وتزويقات الخزّافين ، وإغواءات تُجّار الأقمشة المَهرة ، الذين تبلبلتْ ألسنتهم باللغات ، يجتذبونَ بها الأجانب المَذهولين بفنون الشرق ، تُدوّخهم رائحة البخّور ، صعوداً باتجاه « مقام سيدي بن عروس» و«جامع الزيتونة» ، تتضوّعُ قربهما روائحُ الأكل الشهيِّ من مطعم الزاوية ، حيث الكُسْكسي بالحوت ، أو باللحم المرشوش بالزبيب ، والمغموس بهريسة الفلفل الحرّيفة . . .!

كم من المرّات كنتُ أدخلُ زنقةً تُفضي إلى سوقٍ جديدٍ ، أكتشفه للمرّة الأولى : للسرّاجينَ والبلْغَجيّة والدبّاغينَ والغرابْليّة والشمّاعينَ والشَواشية وخيّاطي البَرَانس واللفّات ، قبل أن أدلفَ إلى نهْج العطّارين حيث«دار الكتب الوطنية» ، وما تزخرُ بهِ من المَخطوطاتِ الضّاربةِ في القِدم ، وذاتَ مرّة لم يكن مناصٌ غير الولوج ِفي« نهج سيدي عبد الله قش» ، من كثرة ما سمعتُ عنه من الحكايات والتشويق ، ولهذا

النهج المُزدحم ببائعاتِ الجسدِ ، والباحثينَ عن المُتع السرّية والعاطلين أحكامه وما جرّ عليّ من المشاهدات التي تحتاجُ إلى صفحاتٍ ولا مجال لذكرها الآن . .!

ما عدتُ أدري

ما الذي يجري لي من تبدّ ل الأحوال ، وتغيّر الأطوار ، وأينَ منّي الظاهر من الباطن ، والحلم من العيان . . . !

الّذي أعرفه أن شيئاً ما قد جرى لي منذ دخلتُ« دار الكتب» ، وأدمنتُ قراءة المخطوطاتِ المركوزة في الحفظ منذ ألف سنة أو يزيد . . !

دوّخني ذلك المخطوطُ الغريب ، الذي لا أجدُ طريقةً لوصفه غير النقل منه ، والاقتباس عنه ، وقد اختلط عليّ الأمر ، وما عدتُ أدرك إن كان ما أكتبه هنا مأخوذاً من أصله ، أو مما أضيف إليه من فعل النسّاخ والمترجمين ، الذين وجدوهُ بالأساس مكتوباً بالقلم السرياني ، ولستُ أدري أينَ حدود كلامي أنا ، أو ما خيّل إليّ ، أو ما هتف في داخلي ، أو ما تسرّب من المخطوطات الأخرى التي اطلعت عليها ، أو ما حدث معي أصلاً في هذا الزمان ، في بلادِ تُونس و حوران ، ولكنّي أعوذُ بربّي من قلم الكُفر والإلحاد والتهتك ، الذي خطّته في القلب الصالح يدُ الكاتبِ الطالح ، بأحرفٍ لها فعل السموم المُهلكة ، وأعجبُ أشد العجب مما قرأت فيه أيضا من درجات الإيمان والزهد والإحسان مما ينال

المرء به رضا الرحمن ، وموئل الجنان ، لو اتبع أمرها ، وقد جرت لي بعد كل ذلك أحداث عجيبة مريبة من فيض هذا المخطوط سأمرُّ على ذكرها حين يأتي أوان ذلك . .!

لا فِكاكَ إذا

مما جَرى لي ، ولم أعدْ أعرف كيفَ أرجع إلى ما كنتُ عليه من قبل . لم أشأ أن أعرف كلّ ما عرفت ، لكنّ ذلك قد حصل وقُضيَ الأمرُ ، لهذا صرتُ أهذي مراراً ، وتنتابني الحُمّى بين الحين والآخر . .!

جاءتني«هاديا الزاهري» إلى شقّتي ، ورأتْ أوراقي المُبعثرة على الأرضِ ، وتلك القوارير المتطوَّحة هنا وهناك ، قالت لي بأنّني أهلكتُ نفسي بالشراب والسهرِ وكثرةِ القراءة ، وسألتني عن تلكَ النُصوص التي كتبتها إن كانَ أحدٌ رآها أو قرأها من قبل ، فطمأنتها بأنّه لم يطلع عليها أحد غيرها ، وإنني أحبّ الآنَ أن تجلس قربي ، وتقرأ شيئا منها بصوتها . .!

قالت وهي تلمْلم الأوراق المتناثرة ، وتدسّها في حقيبتها بعناية بأنّها ستفعل ذلك في المرّة القادمة ، ودعتني أن أخرجَ من طقوس عزلتي وكآبتي ، وأذهبَ معها في نزهة إلى« سيدي بوسعيد » حتى نشرب الشايَ الأخضر بالنعناع ، في مقاهيها المطلّة على البحر ، ولم يكن لي غير أن أتبعها ، ووجدتني بعد ساعةٍ من الزمن أجلسُ قربها ،

نرنُو بنظراتنا حيث يتضبّب أفق المياه ، ونستنشق هواءً طازجاً ينعشُ القلب ، وأنا أنفث ما في داخلي ، مرّة أصرخ من الحنق ، ومرّة أضحك ، وهي تُصغي إليّ ، وقد تملكتها دهشةُ حكاياتي عن أيامي الماضية ، قبل أن أصلَ إلى تونس ، وأغرق في لجّة بحرها ، وأتعرّف على شيءٍ من تجليات أهلها .

وقلتُ لهَا

إنّني إذا جاءني الوجد ، وهاجتْ بي الذكرى ، وتناوَشتني الأحزانُ ، وضاقت عليّ الأرض بما رحُبت ، أحبّ أن أصعدَ جبلاً منيفاً ، فإذا وصلتُ قمته ، رغبت أنْ أسمع موسيقى هندية لآلة الستار ، أو قَوَالي نَصْرت خان ، أو غناء شجْريان مع دقّات السنطور ، أو المَالُوف الأندلسي ، وشجن صَليحة ، وربّما لا تصدقين أيضا أنني أتمنى سماع مدائح النقشبندي و سورة مريم بصوت عبد الباسط . . . ، وعندها يا « هاديا» أبدأ بالنشيج ، فالبكاء ، فالنواح بصوتٍ عالٍ تسمعهُ الخلائقُ فتبكي معي وعليّ ، حتى يرقّ لي الحجرُ والشجرُ والطيرُ ، و حين تنتهي النوبةُ أشعرُ بالهدوء والسَكينة والتطهّر ، ويزولُ من صدري الغمُّ والهمُّ وقهرُ الزمان . . .!!

قالت لي : أنتَ غَريب . . فعلاً غريب ، وأطوارُك تحيّرني ؛ لكنّي رغم كل شيء ، أريد أن أظل قربك ، وأردفت مازحة :

« إشْ قوْلك تِصعدْ جَبلْ بُوقرنينْ . .أُخزر[1]قدّيش عالي » .
قلت لها : على شرط أنْ أكونَ وحدي . .!
سكتتْ قليلاً ، وأردفتْ بضحكة مُجلجِلة :
« مَانا قُلتْ من الأوّلْ إنّك راحْ تهبّلني ، بَاهي روحْ لوحدك يا حَلّوف . . . »
وقلتُ لها :
« صدّقيني لا أعرفُ ما الذي يجري لي . . أحياناً أحسّ نَفسي « حلوفْ » عن جَدْ أو مثل شيطان رجيم ، وساعات أراني من الملائكة المطهّرينْ . . . يمكن أنا مجنون ولاّ شو . . بالحق عييت[2] وفدّيت[3] . . . . مشْ هِيك بتقولو . . .؟ » .

لا أستطيعُ أبداً

أن أشطبَ ثلاثينَ عاماً من الحرب أو انتظارها ، أنتِ لا تعرفين يا هاديا ما معنى انتظار لا جدوى قبلهُ ولا أمل بعده . .!
تقولين« إش بيك جدّي كثير وديما عابِس ومهموم »
ولكن لم يكن هناك الكثير من الوقت للبهجة والفرح ، ولهذا

١- اخزر : أنظر (لهجة تونسية)
٢- عييت : تعبت (لهجة تونسية)
٣- فديت : مللت او سئمت (لهجة تونسية)

تجمدت قسماتُ وجوهنا وقست من قلّة الضحك . . .!

أنت لا تعرفين كيفَ كنّا نصحو على أغاني الحرب الحماسية « بيقولو إنّو الأردنية مكشرين على طُول . . .» .

والخطب الطنّانة في المدارس والثكنات ، وننام على وقعها أيضاً ، ونشربها مع شاي الصباح :

« مرحى لمدرعاتنا . . ، و دبّابات الجنزير . . ، وين ع رام الله . . . ، وحنّا للموت وحنا للسيف . . . ، ربْعَ الكِفاف الحُمْر . . . ، وهيه هيه يلاّ يا بو عبدالله بِدْنا نحارِب . . . ، وكان جماعةُ الأخوان المسلمين في الجامعة يُنشدونَ أغاني الترمذي و أبو راتب ويقولون« هيّا أخي للجهاد» . . . ، و« يا أمّة الإسلام انهضي . .» . . . ويُوزعون علينا الوصايا العشر للشيخ البنّا . . .!

. . وكانَ بسطارٌ أسود ثقيلٌ يترنّح فوق كتفي أولّ يوم لي في الخدمة العسكرية الإجبارية ، استلمتُ فيه الملابس الفتيك ، والخُوذة ، ومطرة الماء ، والجُعب الفارغة من العتاد ، ولم يكن من وسيلة إلا أن أضعَ البسطار فوق كل هذا الحمل ليترنّح بأربطته على رقبتي ، كان منظراً سريالياً ، صدّقيني أنّني كنتُ أمضي ساعات طويلة في تسويدِ وجهه ، أنا أقصد البُسطار . . . ، حتى يُبيّض وجهي أمام الضابط ، واكتشفتُ من الجنود السابقين لنا طرقاً مبتكرة للتلميع بالكيوي المحروق والملعقة ، حتى يستطيعُ الواحدُ منّا أن يحلقَ ذقنه أمامَ لمعتهِ الصَقيلة ، كان الربطُ والضبطُ عالياً ، والتدريبُ أيضا ، لكنّي لم أطلق

رصاصةً واحدةً عليهم . . ، أقصد الإسرائيليين . . .إنتظرنا الحربُ طويلاً ولم تأتِ ، وحين أتتْ ذات مرّة كنتُ طفلاً . . . بالمناسبة فكرة القتلِ تُرعبني ، كيفَ يُمكن للإنسان أن يقتلَ إنسانا آخر ؟

وكيف يمكن أن يتحوّل الواحدُ منّا إلى قاتلٍ بأعصابٍ باردةٍ وكأنّه يذبح دجاجةً . .؟

ذلك ما رأيتهُ بعينيّ ذات يوم أغبرَ تحت شجرةِ زيتونةٍ شرقيةٍ لا غربية ، والقاتلُ يقولُ للشاب المسجّى تحتهُ مسترحماً« سامحني . . .لا مناصَ من قتلك . . . لا حولَ ولا قُوّة إلا بالله» وبعدها جزَّ رقبته بالسكين ، و زاد بأن خرق رأسهُ بالرصاص . . . .!

قتلهُ مرّتين ، وظلّت الكوابيسُ تأتيني في المنام تعيد لي شظايا المشهد فأفزع إلى أمّي ، فتسقيني من« طاسة الرُوعة» ماءً يُسكنني ، و ظلَّ الناسُ القريبون من القبر يسمعون في هدْأةِ الليالي صوت صرخاتٍ تقشعرّ منها الأبدانُ . .!

سامحيني يا هاديا فأنا محتارٌ و «ملخبط» ، و أعرف أنّك لن تفهمي الكثير مما قلته أو أقوله الآن ، لكنّي أريد أن أفضفض هنا ، ولا أحد يسمعني غيرك وبحر سيدي بوسعيد ، تحمّلي هذياني ودعيني أكملُ لك ما كان يحدث بعد الصحيان القسري ، وطقوسه العجيبة في آخر الليل ، قبل بزوغ الضوء ، وصوت العريف يصرخ « وحّد الله يا عسكري . .انهض » ولا مجال بالتأكيد لمناداةٍ أخرى ، حتى لا يُراق الماءُ الباردُ على الوجوه .

كنا نبدأ يومنا برياضة الركض حتى تصل القلوب إلى الحناجر من شدة اللهاث ، والتعب المضمّخ بالجمل المتجهمة ، وحين يهدّ الجري أجسادنا ، تكون بيضةٌ مسلوقة بانتظارنا مع قطعة حلاوة ، وكوب شاي مغليّ بالكافور على ذمة الجنود الأغرار حتى تخمد شهواتنا ولا نهتاج . .!!

تقولين ما الكافور؟ وما أدراكِ ما هو ؟

مرة سألت الطباخ المكرش ذا السترة البيضاء المدهونة بطرطشة عصير البندورة ، وآثار مسح الأيدي عن حكاية وضع مسحوق الكافور مع الشاي ، أذكر أنه جاوبني إجابتين متناقضتين ، مرة عن صحّة الأمر ، ومرّةً حلف بالقرآن والرحمن أن ذلك لا يعدو أكثر من إشاعة ، يطلقها الجنود من فرط التوجس على ذكورتهم ، ومائهم المسفوح في الحمامات . .!!

أنا كنت أصلّي الصبح جماعةً ، فما بالك بالصلوات النهارية ، قبل أن تدمر القراءات والنقاشات الجدلية طمأنينتي الهشّة . . ، وكنت أكثر من الدعاء لينصرنا الله على الأعداء من الكفار واليهود ، ولكن الحرب لم تأت أبدا ، فقد وقعت الدولة اتفاقية سلام ، وقالوا لنا « انتهى كل شيء . . و ما فيش حرب ولا ضرب . . .» ، وأنا أحسست حينها أن كل شيء راح هباءً منثوراً ، وكأنّهم ضحكوا علينا . . . ، وأراقوا ماءً بارداً فوق رؤوسنا ، و الحمد لله أن الحرب لم تقع . .أتدرين لماذا ؟

لأنّه كان سيحدث لنا بالضبط أو يزيد مثل ما جرى في العامين

الشهيرين ١٩٤٨ وال ١٩٦٧ ، ولا تظنّي أنّي متشائم أو انهزامي جبان . . .!

قتلتنا العواطفُ والخطبُ والأدعيةُ المجترة . . . ، والآن يا هاديا علينا أن نعترف بأننا أمة عربية مهزومة و ذات رسالة خامدة ، ولا نكابر أو نمنّي النفس بالأكاذيب ، فلعلنا بعدها نستطيع أن نبدأ من جديد ، فإذا عرف السبب بطل العتب . . . ، و أنا الآن أشعر بأنني صرت « أُخبّص» ولن تفهمي عليّ ، بس والله العظيم أنا نفسي ما عدت أفهم شيئا . .!!

قالت وقد عشعشت الدهشة على قسمات وجهها :

– ربي يستر . . . والله ما نعرف كيفاش تِخْلصْ من هالكوابيس . . انتو المشارقة حياتكو كلها حروب . . . . . بربّي انسى الموضوع وخلينا نتفرهدو خير ، وانسى حكاية الإخوان المسلمين . . . مش ناقصنا وجع دماغ ، ومن بعد نحكيو . . . سا فا [١] . . .؟

قلت لها على طريقتها : سا فا ولكني أعرف أنني مش سا فا . .!!

وراحت تضمني بقوة فيما ضحكتها المشاكسة تضيع أمام صخب البحر وهي تقول :

– سا فا با [٢] تحب تقول . . . . يا سيدي انتو بالحق ما تفهموش فرنسي . .؟

قلت لها متمما : ولا حتى إنجليزي . . .!!

---

١ – ca va : جيد (بالفرنسية)

٢– ca va pas : غير جيد (بالفرنسية)

حمّادي العسّاس[1]

سألني ذلك الصباح ، أول ما دلفت باب « دار الكتب» :إش بيك لوحدك اليوم . . .؟؟ وكان يقصد« هاديا» ، ولم تكن قد التحقت بي بعد ، لا بد من أمرٍ أرغمها على التأخير ، فقد كنا نتفق على اللقاء في المقهى الملاصقِ ل« باب البحر» في الثامنة والنصف صباحا لنشرب قهوة بالحليب مع قطعة كرواسان أو كيك ، ليروق لنا اليوم من بعد ، حيث القراءات المكثفة في دار الكتب حتى الظهر ، بحثاً عن المصادر والمراجع وسط ركام المخطوطات ، كانت ترافقني في أغلب الأحيان لكنها لم تكن تتدخل في قراءاتي أو تشغلني عنها ، كان لها اهتماماتها الخاصة ، غير أنه منذ عثرت لي على ذلك المخطوط ، وجاءتني به مغبّرا من بين الأرفف ، وأنا أشعر بفيض من الحيرة تجتاح كياني ، وصرت أحبّ أن أبقى متوحدا تماما وبعيداً عن كل البشر ، كان شيئا ماحقا لم أقرأ مثله من قبل قط ، يموج بشتّى المَعارفِ ، والحِكَم ، والنصائح ، والفُنون ، والإشاراتِ ، واللُمَع ، والمقاماتِ ، والهرطقاتِ ، والحيلِ ، والسِحرِ ، والشَعوذةِ ، والطّلاسِم ، وكأنّهُ قد حَوى علوم الأوّلين والآخرين من الإنس والجّان . .!!

---

١ – العساس : الحارس (لهجة تونسية)

و الحقيقةُ التي اكتشفتها فيما بعد ، أن هاديا لم تعثر عليه فجأةً بين أرفف المخطوطاتِ ، فقد خيّل إليّ أنّها قالت لي ذات مرّة بأنّها قرأته مراتٍ ومرّات ، وأنّها تشرّبته حرفاً حرفاً ، وأحبّت أن تُشركني فيه ، وأن لا أحد يعرف مكانه السّرّي غيرها ، أو ربما بدا لي كأنما حجب عن الأعين ولم يمنح لغيرنا ، وشعرت كما لو أنه كان شبحاً يتّخذ شكل مخطوطٍ مرةً يظهرُ ومرّة يتخفّى ، وادّعت ذات صباحٍ بأنّها ورثته من جّدها في «تستور» ، وأنه يعود إلى أجدادها السابقين عليه الذين قدموا من الأندلس هرباً بالمخطوطات وبحياتهم من ظلم الأسبان ، ومحاكم التفتيش . . .!!

انتظرت هاديا ولم تأت ، وفي المساء طرقت علي باب شقتي ، وكانت تحمل بعض أوراقي التي كتبتها ، وألقتها أمامي وقالت :

– هذا مدهش وخطير ، احذر أن يطلع عليه أحد حتى يأتي أوان نشره على الناس . .!!

ولكن من أنتَ حقّاً؟

قالت لي ذات يوم ، أحياناً أحسبك شيطاناً رجيماً من شدّة هذياناتك ، ومرة تبدو لي قدّيسا طهورا مما تكتب ، بالضبط كما تصف لي نفسك ، دنيوي وسماوي معا ، واقعي وحالم ، ثوري ومهادن ، مسكون بالحاضر والتاريخ ، كأنك تجمع في أعماقك كل المتناقضات

ثم إنني لا أعرف أين كنت ، ولا كيف حدث أن جئت هنا ، ولكني متأكد من أن ثمة قوة ما تريدنا أن نلتقي ، وتريدني أن أدلّك على مجاهل لم ترتدها من قبل ، أو ربما تقودني أنت إليها ، وبدت متعطشةً لتشّرب ما أجود به عنّي ، فرحت أفيضُ عليها بكثيرٍ من الهراء ، وشيء مما يختزنه الرأس المشوّش :

أنا «قيس حوران» ، ولدت في زمن الهزائم والانكسارات ، والعلل والنكسات ، كان عمري سبع سنوات حينما قرعت طبول حرب ١٩٦٧ ، واحتل العبرانيون المدجّجون بالتوراة وأسلحة بريطانيا وأميركا ما تبقى من فلسطين ، وأتبعوها بسيناء والجولان ، ودخلوا المسجد الأقصى وعاثوا فيه كما فعلوا أوّل مرّة ، واندحرت جيوش العرب العاربة والمستعربة في أوكارها ، و شرد الخلق إلى كلّ مفترقٍ ، ومرّ بسهولِ حورانَ آلاف النازحين من يافا وصفد وطبريا وعكا ورام الله وجنين . . .ومن قرى كانت تفيض عسلا ولبنا ، فمنهم من استقرّ ، ومنهم من آثر المضيّ إلى العراق وسوريا وأصقاع العالم ، وكان أبي وشباب القرى الواقعة على الهضبة الشرقية المقابلة للجليل والجولان ينحدرون في الثلاثينيات إلى نهرِ اليرموك ، ويقطعونه إلى غور بيسان فحيفا ليعملوا هناك في البيارات وسفن الميناء ، وليروا شواطىء تقودهم إلى العالم البعيد ، كانت فلسطين تبدو لهم قطعةً هبطت من الجنان وعالم الأحلام ، رغم ما تكاثر بها من المهاجرين والأغراب وقطعان

اليهود ، فسبحان من يقلّب الأحوال ، وكانت زيارة القدس للتقديس ومباركة الحجّ في المسرى ، بوابة السماء ، قبل أن يضيع كلّ شيءٍ ، وتتسرّب البلاد من بين الأصابع مثل قطرات الماء ، وتتدمر أرتال الدبابات ، وأسراب الطائرات العربية في مهاجعها على وقع أغنية أم كلثوم«يا مسهّرني» ، وما زلت أذكر كيف وزّعوا علينا في المدرسة علباً من البسكوت والسردين بهذه المناسبة ، وقال لنا المعلمون إنها مساعدات غذائية من بريطانيا بسبب النكسة ، وكان طعم البسكوتِ لذيذاً فتمنيت أن تدوم الحرب طويلا ، وأخذ أخي الذي كان يسبقني ببضعة صفوفٍ كرتونةً مزدحمةً بالمعلبات ، وحملتُ واحدةً خبأتها في« سبت» أمّي ، وكنتُ رأيت فوقنا طائراتٍ بدت سوداء وتملأ السمت القريب ، كانت تمرّ مسرعةً بأصوات مرعبةٍ ودخانٍ أسود ، فقلت لأبي المدمن على سماع إذاعة« بي بي سي» فرحاً :

– هذه طائراتنا . . . .!!

فقهقه من قولي حتى كاد يقع على الأرض ، ثم انقلب مزاجه فجأةً ونهرني بقسوةٍ وقال :

– ملعون أبوك على أبو الطيارات . . ولك إحنا شو اللي خوزقنا غيرهن . . . .هظول لليهود !!

وخفت على أخي الأكبر محمود ، عسكري المدفعية أن تُهاجمه الطائرات و يموت ، وانتبهت أمي إلى بكائي ذات ليلة فقلت لها

– هل يستطيع أخي محمود أن يسقط طيّارات اليهود

بمدفعيته . .؟

فقالت تطمئنني :

– أكيد أخوك بقدر لكن أعوذ بالله من هالحكي . . .إن شاء الله ما بتقرِّب صوبه !

ثم مر عام رزىء الناس فيه من شتّى الكروب ، وسقطتْ قنابلُ النابالم المحرقة على قرى حوران وجلعاد ومؤاب ، حتى وقعت معركة الكرامة .

وفرحنا بالنصر . .

ولكن جيء بأخي العسكري ملفوفاً بالعلم ، وقيل لنا أن لا نخاف ولا نحزن لأنّ الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون ، وبكت أمي حتى ابيضّت عيناها من الحزن ، ونهاها خالي الشيخ أحمد عن البكاء لأنّ ذلك يعذب أخي في قبره ، وكرهتُ من يومها أكل البسكوت والسردين ، ومضت أيام أكثر سواداً ، وأخبرنا أخي ناصر أنه سيلتحق بقاعدة الفدائيين التي تأسست في مغائر الوادي القريب لقريتنا ، وأنّ الكثير من الشباب والبنات التحقوا في التدريب حتى يحرّروا فلسطين ، ونهره أبي قائلاً :

– أنت تريد أن تلتحق بالشيوعيين الكفار وتفضحني عند خلق الله وعند الدولة . . !

وأرسله ليدرس في ثانوية«حسن كامل الصباح» بإربد ، وهناك وجدها فرصة سانحة لينتمي لأحد التنظيمات الثورية التي اختلط فيها الأردنيون والفلسطينيون والمتطوعون من بلاد العرب معا .

كانت الأمورُ كلها صافيةً مثل فلق الصبح ، والأحلامُ بيضاء بغد يفيض بالحرية والنصر ، حتى جاءت أيامٌ أخرى مثل العلقم ، أصبح الحليم فيها حيران ، من كثرة ما حدث من الهرج والمرج والفرقة والشقاق بين الأخ وأخيه ، إذ وقع الصدام بين الجيش والمليشيات المسلحة ، وقيل لنا إن ناصر هرب مع رفاق تنظيمه إلى سوريا ، ثم جاءتنا الأخبار أنه ذهب إلى لبنان ، و علمنا بعد ذلك بوقت طويل أنه ودع السياسة والكفاح المسلح إلى غير رجعة ، فقد تزوج هناك من بنت صيداوية بعد أن خرج المقاتلون من بيروت ، وقال لي أحد رفاقه الذين التقيت بهم هنا في تونس بعد عشر سنوات من الخروج إنّ حياة ناصر كانت قد انقلبت تماما بعد خروج المنظّمات من لبنان ، ويبدو أنه كان يقول كلاماً خطيراً سبّب له كثيراً من المساءلة والشكوك من قبل مسؤولي تنظيمه حتى بدا لهم منشقاً ، مثل أنه لا يريد أن يفني بقية حياته بالأمنيات الخادعات ، وأنّ حكي القرايا – حسب ما اكتشف – غير حكي السرايا ، وأنّ الثورات تأكل أبناءها في العادة ، لكنّ الأبناء هنا هم الذين أكلوا الثورة ، وأنّه حينما التحق في النضال فإن ذلك من أجل أن يخدم قضيةً مقدسةً استشهد أخوه في سبيلها ، ولم يأت ليحارب في جبهاتٍ أخرى غير جبهة الإسرائيليين ، وتحت

إمرة قيادات مزّقها التشرذم وعصفت بنقائها المصالح ، وفساد العناصر ، وأذكر أنه قال لي مودعا قبل أن تمخر بنا السفينة عباب المجهول « أنا لا أطيق أن أكون بعيدا عن نسائم لبنان ، وأكاد أحسّ بأنّه لن تقوم قائمة للثورة من بعد هذا الرحيل . . .» .

وتقول بعض أخباره التي وصلتنا أنه صار يعمل في التجارة وتفرغ لها مع أنسبائه الصيداويين ، ولم يرغب أن يعود إلى البلاد ، وذلك آخر علمنا به . . .!

ولكن يا هاديا يا صديقة روحي ، هذا البوح ينكأ لي جروحاً لم تندمل بعد ، وإنّي أرى الآن ظلمات فوقها ظلمات قد أطبقت على البلاد والعباد ، فلا تلوميني إن غرقت في أسرار الكتب والمخطوطات ، أو صببت شيئا من الهواجس والهموم على الورق ، لعلها تخفّف عني هول ما أجد . .!!

وقالت انتبه لهذياناتك

فإنّها قد تودي بك إلى التهلكة ، وإن ظهر لك أنها تريحك من هذا الحمل الثقيل الذي يرزح فوق ظهرك ، أعرف أن المخطوط سمّم طمأنينتك ، وأدرك بأنّك ما زلت أسير الذاكرة والسنوات التي انقضت من الهزائم والأحداث القاسية في حوران وما حولها ، ولكن يا« قيس» يا صديقي لماذا لا تتوقف عن الذهاب إلى« دار الكتب»

قليلا حتى تتوازن أكثر ، ولم لا تحاول أن ترتاح من الماضي وهمومه ولو بعض الوقت ، ثم عليك أن تنتبه لدراستك ، بدل ما تخطه من أوراق ، المسألة هنا جدّية حقّاً ، ولا سيّما أنّك في المرحلة الأخيرة من الدراسات العليا ، وتعرف أن قوانين الجامعة لن ترحمك إن قصرت ، أدري كم أنت متفوقٌ في التخصص لأنك لا تعشق التاريخ فحسب بل يسكنُ في أعماقك ، فلا تنسَ المستقبل ، نسيتُ أن أقول لك بأنّ البوليس طلبني أمسُ من أجلك ،لا تقلق أسئلة اعتيادية ، ولكن قل لي الآن من هي سعيدة القابسي التّي تهجس باسمها في لحظات الحمّى . .؟ ولماذا لم تخبرني عنها من قبل . .؟ ثم كيف حدث أن ذهبت إلى نهج سيدي عبدالله قش سيء السمعة ؟

قلت لها : من دلّك على كل هذه الوشايات ؟ ولكنّي سأجيبك عن كل ما تطلبين ، فقولي بكل الصدق الذي بيننا ما الذي يأمله البوليس من واحدٍ مدمّرٍ مثلي فأنا لا أكاد أغادر دار الكتب أو قسم التاريخ في« جامعة ٩ إفريل» ، وشقّتي أيضاً . .أما ما طلبت مني أن تعرفيه عن« سعيدة» فما أملك إلا أن أعطيك هذه الأوراق فإني خطّطت فيها جزءا من حكايتي معها ، واطمئني فقد انتهى كل شيء بيننا قبل أن أتعرف عليك ، وأمّا الذهاب إلى نهج سيدي عبد الله قش فربما أحكي لك ذات يوم ما جرى ، وهي حكاية طريفة حقا ، ولكني لم أكن أعتقد أن الشرطة عندكم يمكن أن تكون مشغولة بمثل هذه الأمور إلى هذا الحد ، وتتبعني في الليل والنهار ؟

ووجدتني حينها غاضبا أدور حول نفسي ألعن الساعة التي جئت فيها إلى هذه البلاد ، فأشارت إلي أن أجلس وأهدأ ، وسوف تحدثني عما جرى معها في مركز الشرطة فيما بعد ، ووجدتها قد غيّرت باحتراف شديد مجرى الحديث ، لكنني أمطرتها بسيل من الأسئلة المتشكّكة ، وصحت بها أن حدثيني عنك حتى يطمئن قلبي ، فقالت إن كان هذا الأمر يفرحك ويهدأ بالك المضطرب فاسمع منه ما تريد :

أنا آخر الأندلسيات

أعشقُ هذا الاسم الذي أطلقته عليّ ، حين عرفت عن جذوري . ولدتُ في«حي الحلفاوين» بالعاصمة ، جاء إليها والدي من «تستور» ،وهو ينحدر أساساً من أسرةٍ أندلسيةٍ رحلت من بلدة تدعى «الزاهرة» بقرطبة ، ومنها أخذنا اسم العائلة ، وقد عرفت منه نقلاً عن أجداده أنّهم هاجروا أصلاً من قشتالة القديمة إلى قرطبة ، ثم طُردوا من هناك حتى بلغوا مرسية أوّل الأمر ، ثم هربوا بدينهم من التنكيل والتنصير إلى المغرب الكبير بعد كل ما جرى من الهوان للمسلمين ، وربما يكونون قد هُجّروا قسراً سنة١٦١٢م ، وحُمّلوا بالسفن التي نقلتهم أولاً قرب الشواطىء المغربية ، ثم واصلوا رحيلهم حتى حلّوا في البلاد التونسية ، واختاروا « تستور » موئلا لهم . .!

أمي قيروانية ، ربيبة كتاتيب وزوايا الأولياء التي أنشأها أجدادها المرابطون هناك ، ومنها تشربت أولى الجرعات الروحانية ، التي أفاضت الطمأنينة في أعماقي ، والحقيقة أن الوظيفة العمومية ومشاغلها هي التي جلبت والدي هنا ، أين تعرف على أمّي ، أمّا« تستور» ففي هذه المدينة الصغيرة كنت أقضي أغلب العطل الصيفية ، حيث بيت جدي ما يزال قائما ، وثمّة الكثير من أعمامي وأقربائنا أيضا ، وبعضهم تفنّن في غناء المالوف والموشحات ، وما يزال منهم من يتقن كلمات من القشتالية ، وينشد بها وراثة ، ويا ليت تأتي معي يوما إلى هناك فنستمع في مهرجان الموسيقى والغناء الأندلسي إلى التراث الآصيل ، فربما تتنسم رائحة أجداد لك من قبائل العرب وأجناد الأردن كانوا أيضا هناك في طليطلة أو غرناطة أو ربما الزاهرة نفسها . .!

في ركن مكينٍ من مكتبة جدّي عثرتُ على المخطوطِ لأوّل مرّة ، أو لأكن دقيقة ، وأقول بأنّه قادني إليه ، حين راح يُطلق لي نداء خفيا كي أفتحه ، وأتشرّب كلماته ، وما حوى من الإشارات والعبر والأسرار ، فهل تصدق ما أقول . .؟

ولكني يا قيس ، لا أستطيع أن أقول لك المزيد عن ذلك ؛ حتى يأتي أوانه ، وحسبك ما عرفت منه ، ولكني أود أن أعترف لك بأنّي قطعت أشواطا في الولوج إلى عوالمه ، وما أحسبك إلا سائرا في الطريق نفسه ، أما دراستي في الزيتونة ، وتدريسي لعلوم الدين في إحدى المدارس ، فلا تقلق فستكون لها جلسة أخرى من البوح . .!!

ثم توقفت فجأةً

عن الكلام ، وضمّتني بحنوّ هائل ، وبدت لي حينها شهيّة وبهيّة ، وكأنّه قد كشف الحجاب عنّي لرؤية مفاتنها لأول مرّة ، فقلت لها إنه لا رغبة عندي في هذه اللحظة غير وصالها ، غير أنني أحسست بأنه قد أفزعتها بكلامي الصريح ، ونظراتي الخارقة وهي تجوس جسدها ، فصدتني بلطف وقالت « أعوذ بالله من الشيطان الرجيم الذي تلبّسك . . أطوارك غريبة ، ولست براغبة بشيء مما تحدث به نفسك ، وما ينبغي لنا الآن . . . .» .

وتراجعت عنّي ، لعلي أفيق من الحالة التي تلبستني ، وقالت مخفّفة من وطأة الجو الملبّد بالخذلان : أريد أن أقرأ شيئا مما كتبت في هذه الأيام ، فأعطيتها بضعة أوراق متفرقة ، وقلت لها إنني أرغب بسماع صوتها وهي تقرأ ، ورحت أصغي لشيءٍ أعوذ بربي أن أكون كتبته من قبل بنفسي أو نقلته من ذلك المخطوط اللعين . . .!!

لم أعرف له اسما قط . .!

فمرة قرأت على غلافه اسم« الزمردة في الزندقة» ، ومّرة عدت إليه فوجدته« الروض العاطر» و خيّل إليّ أيضاً أنّه «انخراق الجنود إلى الجلود» ، ولوجه الحقيقة لست متأكداً من شيء في كل ما ذكرت ، فقد

ظهر لي أنه خلطة عجيبة أنجزها نسّاخ ماهر ، أو كاتب ساحر من كتب شتى مثل«الدامغ» و« التوهم» و« نواظر الأيك» ، و« رسالة إبليس إلى إخوانه المناحيس» ، و« مصحف رش» ، و« الزنجبيل القاطع في وطء ذات البراقع» وغيره من الكتب والمخطوطات التي مرت عليها الحقب ، واختلط علي اسم كاتبه أو مؤلفه ، فمرة بدا لي أنه« السيوطي» ، ومرة «إبن عبد ربه»أو« الأصفهاني» أو« المحاسبي» ، أو« النفزاوي» أو «التيفاشي» او« الحلاج» ، أو« حمدان القرمطي» ولكني حفظت اسم ذلك الرجل المنسوب إليه تأليفه أكثر من غيره ، وهو« أحمد بن اسحق الراوندي» الذي يبدأ كتابه باسم الله والصلاة والسلام على رسوله ، وأن العوام قد ضلّوا ولم يفقهوا له قولا ، ثم يغط ريشته بسمّ له قوة ألف عقرب ويكتب :

أيّها الجالسُ عَلى عَرشٍ مِن نار

في أسْفلِ سافِلين ، أنتَ سيّدنا كل حين ، دهرَ الداهِرين وأبدَ الآبِدين ، نَحنُ الذين بعناك أرواحنا ، فلست أذكرُ غيْرَ أنّي زِنديقٌ مَرقَ من الدينِ مُروقَ السّهم ، كُنتُ أُمضي الليالِيَ ساجداً راكعاً قانتاً أبحثُ في كُتبِ : الفِقه والسّنن والجرحِ والتعديلِ والفرائضِ والعقائدِ ، التي تركها الأوّلون ، عنْ ركنٍ مكين آوي إليهِ ، ولم أجدْ غير الهباء يملأُ لي صدري ، والخواء يُعشّش في رأسي ، وجئتَ إلي أيّها النّاريُ المبجّلُ

فسكنتَ فيّ وهمستَ لي من القولِ ما استقرّ في قلبي :

أنا من وضعَ كتاباً في قِدم العالم ونفي الصانع . .!
ليسَ ثمّةَ من شيءٍ غير قبضِ الريح . . . .!
باطلٌ كلّ ما قيلَ ومحضُ سرابٍ . . . .!
أيّها الناسُ : اتركُوا العباداتِ
وخُوضوا في الفِتن . . . .!
ومَارِسوا الموبقات الألف . . . .!
يرقْ لكمْ وجهَ الزمانِ
وتكُونوا من بعدهِ
قوماً مسرُورين . . . .!

سامِحني يا ربّ

على ما نقلته هُنا من ضلالاتٍ وإلحادٍ ، وأعوذ بكَ مما تقشعر منه الجلودُ من القول ، وقد علمت أنّ ناقل الكفر ليس بكافرٍ ، فقلت أنقل بعض ما قرأت مما نُسب إلى ذلك المتمرد الأكبر ، ربيبُ إبليس الراوندي ، وأستاذه أبي عيسى الورّاق المانوي ، ليقرأه خاصّة الخاصّة ، ويحرقوه إذا شاءوا من بعدِ . .!!

فقد كتبَ أيضا :

« اعلموا أيّها الناسُ أنّكم تأتونَ بما ينافر العقول ، مثل رمي الحجارة على الهواء ، والطوافُ حول بيتٍ لا يسمعُ ولا يُبصر ، و العدوُ بين حجرين لا ينفعان ولا يضرّان ، وهذا كلّه ممّا لا يقتضيه عقلٌ ، فما الطوافُ على البيتِ إلا كالطّواف على غيرِه من البيوت . . .

تخيّلوا ما في الجنّة : أنْهارٌ من لبنٍ لم يتغيّر طعمُه أي الحليب ، ولا يكادُ يشتهيه إلا الجائعُ ، أما العسلُ فلا يطلب صرفاً ، أمّا الزنجبيلُ فليسَ مِنْ لذيذِ الأشْربة ، أمّا السُنْدس فهو يُفرش ولا يُلبس ، والإستبرقُ وهو الغليظِ من الديباج ، فمن تخايل أنّه في الجنّة يلبسُ هذا الغليظ ويشربُ الحليبَ والزنجبيلَ فهو مثل عروس الزنج . . . . أيّها الغافلون عنْ ملذاتي أنا أمنحكم ما تشتهي أنفسكم لو . . . .»

وقلتُ لها حسبُكِ

وأعوذ بالله من شرّ ما كتبته أو أملتهُ عليّ الشياطينُ مما سمعتُ منك ، فإن رأيتِ يا هاديا أن تُمزّقي الأوراقَ ، وتذري حُروفها في الهواء فهذا الأمر لك ، ثم هبط عليّ نعاسٌ ثقيلٌ فنمت ، وآخر ما أذكره وجه هاديا ، وهي تجلس قرب الشرفة تقرأ بصمت شيئا مما كتبت ، وحين أفقت وجدتُ أوراقي قد وضعت قربي ، ووجدت هاديا قد غادرت بعد أن تركت لي ورقةً وضعتها فوق رزمة الأوراق وقد كتبت فيها :

« . . . كل ما قرأتهُ لكَ من شكوكِك الشيطانيةِ أهونُ عليّ مما كتبتَهُ عن سعيدة القابسية وأحوالِك معها ، ولكنّها تبدو مجنونةً مثلك . . . . . ، قلْ لي من أين لكَ كلّ هذا التهتك . . من جدّك التيفاشي أم من فعل المخطوط كما تدّعي ؟ ولكني لم أقرأ فيه يوما شيئا مما ذكرت . . شيء غريب ومحير . .!

حاولت أن أربط النصوص ببعضها ، وجدتها أشبه بالفسيفساء ، ما لك ولدواء الفروجِ ، وسياسةِ البلادِ وأحوال العبادِ . . . . ربّي يستر يجي يوم ونلقاك تهت ونقعد نلّوج عليك بمنوبة . . . ها ها ها ، ولاّ يمكن بنهج سيدي عبدالله قش مثلما فعلت . . .!

لا أستغرب من صديقك الطيب أن يدلّك على تلك الأماكن العفنة ، بدلا من أن يأخذك إلى قصر النجمة الزهراء مثلاً ، أو يُريك آثار قرطاج وقصور الحفصيين ، أو يقودك إلى دارٍ للثقافة . . . ، الله غالب ، وزادة [1]يحب يِتْزوج شامية . . فعلا ما يِستحِقّش التونسية ، ولا إشْ قَولك ؟

بالمناسبة سأغيب عنك قليلا ، بضعة أيام . . . . ، نسيت في غمرة اللقاء أن أخبرك بذلك . . . ، مجرد رحلة مع العائلة إلى طبرقة . . سأعود فلا تقلق . .!

١- زادة : ايضاً (لهجة تونسية)

ملاحظة : لا تنس بعد أن تستيقظ من نومك العميق أنْ تشربَ الشاي الأخضر بالكافور . . . أحوالك صْعِيبة ياسر[٢] يا بِزناس[٣] . . . .ها ها ها . ."

أضحكتني كلماتها الساخرة التي ترشح بالغيرة ، ثم داهمتني الحيرة وأنا أفكر بما ذكرت من العبارات ، فقمت ووضعتُ نفسي تحت دشّ ماء باردٍ حتى استفقت تماما وتنشطت ، ثم صنعت شاياً أخضرَ كما أشارت عليّ ، ولكن مع كثيرٍ من أوراق النعناع ، وقلتُ لنفسي لمَ لا أتصفّح أوراقي من جديد ، فقد تكون هاديا محقّةً فيما أشارت إليه من الملاحظات ، فرحت أقرأ نصوصي المقطعة الأوصال ، وتلك المقاطع الصغيرة التي لا أعرف لم كتبتها ومتى وتحت أيّ إلهام أو تضليل ،غير أني لم أرغب بأن أُعيد تنظيمها من جديد فهي حقا تعكس أحوالي المشظّاة وقت كتبتها ، ولكنْ يا لهول ما وجدت :

أبيضُ مِنْ غَيْرِ سُوءٍ

أكَلتُهُ بالرؤيةِ العَطْشى ، كانَ مَدعُوكاً بالمَرْمَرِ ، مَفروكاً بالزّعفرانِ ، مَرشُوشاً بماءِ الوَرْدِ ، يَفيضُ بثَمرِ جَذلٍ مُتطوّحٍ من النُضجِ والاستواءِ ، مُمْتلئٌ بذاتهِ ، جَليلٌ وكريمٌ ، لا أُحْصي عليهِ تَشبيهاً يظلمَهُ ، ولا مدحاً يُشتّت روعَته . . . . .!

١-ياسر : جداً أو كثيراً (لهجة تونسية)

٣ - بزناس : لفظ يطلق على من يطارد النساء (لهجة تونسية)

هلليويا . . . أصيحُ من أثر الحُبور ، أو أُهَذْربُ بلغاتٍ بائدةٍ أو « أُهيجِنْ » . . . ، وأدندنُ و أزغردُ وأغنّي معاً بما لا أفقه من شدة السّرور ، ذلك من فضل الرؤيةِ ، فما بالكم لو اقتربت وشمَمْتُ ، أو يا للغبطة لو أنّني مددتُ يدي ولمستُ أو اندسستُ وولجت وغبتُ وانتفضتُ . .!

« سعيدة . .»

أذكرك الآن . . . أشرب نخبك وأبكي . . . الوحدة تقتلني ، ولا بدّ برد باريس ينخرُ عظامك الآن . . . اللعنة على غيابك . .!

تحت زقزقةِ العصافيرِ

وظلال الشجر المتشابك في شارع بورقيبة مشينا ، كانت أكشاكِ الورودِ المنتشرةِ تُشكل لوحة بهية التكوين ، ونحنُ نعبرُ بينها ،منغمسين بشذى عطورها ، وسمفونية ألوانها ، وكان باعة مشموم الياسمين يتسابقون لبيعنا أضاميمَ منها ، اخترت واحدة لسعيدة وأخرى لي ، وضعتها فوق أذني اليمنى كعادة التوانسة ، وكنتُ قد خرجت للتوّ من «مقهى باريس» في موعدنا الأول ، أو« الروندیفو» كما كان يحلو لها أن تسمّيه ، بدا أمر تعرفي عليها وليد الصدفة ، صبية حنطية الملامح

أقربُ إلى السُمرة منها إلى البياض ، بشعرٍ مرتبكٍ ، ونظارةٍ طبيةٍ رقيقةِ العدسات ، تخفي عينين فاتنتين مكحلتين ، ومكياج خفيف ، وسيجارةٍ متوترةٍ بين أصابع نحيلة ، وقد حشرت جسداً مكتنزاً دون إفراطٍ في بنطال جينز شاحب ، وقميصٍ سماويِ اللون ، داهمتْ فجأةً طمأنينتي ، واجتاحتْ عالمي الساكن خلال ثوانٍ معدودةٍ :

-« بربي . . . .عندك وقيدة . .؟»

كنت أجلس على الدكّةِ المرمرية ، قاعدة تمثال ابن خلدون المنتصب آخر الشارع ، وهي عادة أدمنتها ، أرقب المترو ، ذلك الأفعى الأخضر ، وهو يتلوّى باتجاه محطة برشلونة المركزية ، والناس العابرين من شتّى الجهات ، وأتأمّل على يميني معمار الكنيسة اليتيمة هناك ، ورسوم القديسين المذهبة على جدارها الخارجي وقد أضاءت هالات فوق رؤوسهم ، وسيل البشر وهم يدخلون جهة المدينة العتيقة ، وأسواقها ، أو يخرجون منها ، وأغلبهم من السياح ، أو أفكر بذلك الرجل الواقف فوقي بقفطانه الحجري وقد عجز عن الحركة أو النطق بعد أن شغل الدنيا في عهود بائدة . .!

-« بربي . . . .عندك وقيدة ؟»

انتبهت لسؤالها ،وأجبت برد ودّي يهفو إلى بدء الحوار في لحظة تواصل عفوي :

-« قصدك ولاّعة أو قدّاحة . . . تِكْرَمي» .

أبدت دهشتها للهجتي وقالت مبتسمةً :

-« سامِحني . . انت مِشْ تُونْسي . .؟» .

وهكذا جرّنا السؤالُ إلى حوارٍ مستعجلٍ ، فهمت منها أنّها طالبة في السنة النهائية في قسم الفلسفة بالجامعة نفسها التي أدرسُ فيها ، وفرحتْ لأنّي مَشْرقي شامي ، وأخبرتَني بأنّ معها زميلتها ويجلسان على مقعد قريب ، قالت إنّني أستطيع أن أجلسَ إليهما قليلا إن رغبت ، وعرفت منها أن اسمها«سعيدة» ، قالت إنّها ليست من تونس العاصمة بل جنوبية ، من عاصمة الحِنّاء ، فأبديتُ جهلي بذلك ، أعلمتني بأن مدينة «قابس» يُطلقون عليها هذه التسمية لشهرتها في الحِنّاء ، وأشارت إلى صديقتها بأنها من عاصمة البرتقال ، فضحكتُ وقلت :

-إذن أنا من عاصمة القمح ،ما دمنا قد دخلنا في مباراة للعواصم . .!

- ياخي إحْنا عندنا برشة عواصم : للقمح والزيتون والدقلة والياسمين ، وصديقتي من بوزلفة ، مْدينة حْلوة قُرب البحر ،مْعبْية قَوارِص أو حمضيات كما تسمونها . .!

لا أدري كيف انقضى ذلك الموقف الخاطف بيننا ، وكيف اتفقت مع سعيدة على اللقاء بعد يومين ، لتتواصل الحكايات ، وتتوثّق المعرفة بكل سلاسة .

وها نحن نعبرُ معا إلى« السوق العربي » ، ونتجاوزُ حوانيتَه والبشر المتدفقين كالسيل في شراينه ، لنصعد إلى ساحة القصبة ، وفضائها

الواسع ، كان الوقتُ قبيل المغيب ، وجلسنا معاً فوق دكّة حجرية على طرف الساحة الواسعة ، شهدنا أولاً نوبة المساء للموسيقى العسكرية النحاسية وتبديل الحرس أمام وزارة الدفاع ، وأكلنا قطعاً من المقروض القيرواني بالتمر ، ومخارق باجة المغموسة بالقطر التي اشتريناها من أحد حوانيت الحلويات التي مررنا بها ، وهناك والمدينة على وشك أن تغطس في عتمة المساء أفاضت عليّ سعيدة بهواجسها المكنونة ، أو ربما المجنونة . .!

كانتْ تدخّن بشراهة ، ولستُ أدري وأنا أجلس قربها أيّ شيطان شدّني إليها ، بدتْ لي من النوع الحاد الطباع ، مزاجيةً حدّ العظم كثيرة الشتم ، كانت من النوع البري ، لم تتمكن العاصمة كثيراً من تدْجين عناصرها الناريّة ، تركتها تتدفقُ بالكلام فعرفت الكثير ، وتركتني ساهماً أتشرّب وجهها المتعب وهي تشكو ، وتناقش ، وتتوتر ، وتسبّ ، وتتوعد ، وتسخر ، ولكنّي كنت أنظر إلى أعماقها فأتخيّلها طفلةً شقيةً نضجت قبل الأوان ، ودُفعت إلى مستنقع العالم دفعاً ، وها هي تخوض وتتخبط محاولة تعلّم السباحة . .!

كان مساءً استثنائياً قلب لي رتابة أيامي ، وأضفى عليها شيئا من الجدة ، والحرارة . .!

وقلت لها مودعاً تلك الليلة ، وهي تعود إلى السكن الجامعي :

– يبدو أن الوْقيدة ستجري تحولاً في حياتي ؟

قالت بقهقهة لها ذيل :

– يبدو أن الولاّعة ستفعل ذلك لي أيضاّ ؟

قَدّيش الوَقتْ ؟

داهمني هذا السؤالُ ذات يوم من أحد المارّة ، وأنا أسير معها ، وكنت كثيرا ما تعرضت له ، أثناء مروري في الشوارع أو جلوسي ، وقلت مازحا لسعيدة : لماذا لا تحلّون مشكلة الوقيدة والوقت نهائياً ؟

فأشارت إلى السّاعة الدائريةِ في «ميدان ٧ نوفمبر» ، وقالت بسخرية مبيّتة : لا تقلق الدولة انتبهت للمسألة ، ولكن بقيت مشكلة الوقيدة ، وأنا أقترح استبدال تمثال ابن خلدون بوقيدة ضخمة ، دائمة الاشتعال ، ليستفيد منها الشعب . .!

بدت لي على خلاف باطني مع ابن خلدون ، وإن ظهر الأمر مزاحا ، فعاجلتها بالسؤال : هل ترغبين حقا بالتخلص مما يُذكّر بالرجل ؟

انتبهت لي وقالت مغيّرة مجرى الحديث : ربما . . . ولكن دعنا من هذا الجدّ الآن ، من المؤكد أن لديكم أسئلة مشابهة في بلادكم ، بالمناسبة تعجبني لهجتكم كثيراً ، سمعتها في المسلسلات التي يضخّونها علينا ، حتى تمشرقنا من جهة ، وتفرنسنا من جهة أخرى ، وثمّة أيضاً من يريد أنْ يُتونسنا تماما والشاطر فينا يختار وجهته . . . !

وسألتني بمكرٍ واضح إنْ كان لدى أهلي قطعانٌ من الجمال والماعز . . . ، وهل أسكن مع عائلتي في خيمة تحت ظل قبيلة ما تزال تأخذ بالثأر ، وتقتل المرأة لأجل البكارة ، وداهمتني بسيل من الأسئلة الساخرة عن وضحا وابن عجلان وما جرى لهما في المسلسل . . .!

كانت تبدو لي أحياناً واقعةً تحت تأثير ما شاهدته في التلفزيون ، وأحياناً بفعل قراءاتها هنا وهناك أو ما سمعت عن البلاد ، خالطة الهزل بالجد ، ووشعرت في أحيانٍ كثيرة أنها تحبّ المشاغبة ، واستفزازي ، ومعرفة كل شيء عن أيامي السابقة في بلدي ، حتى إذا رأتني غاضبا مرّة ، تعود لتهدئة الجو المتوتر ، وتبدأ بإطلاق النكات وتضحك عليها قبلي . . .

قلت لها « إنني لست مغرما بهذه المسلسلات ، وإنه لا علاقة لها بحياتنا اليومية ونمط معيشتنا ، وتعجّ بالتضليل والأكاذيب ، وهي بعض حيل حفنة من المنتجين ، وهم تجارٌ بالأساس ، اكتشفوا أسواقاً في دول الخليج وليبيا ليصدّروا لها هذه المسلسلات ذات المواصفات الخاصة حيث تظهر المرأة بالصورة التي يرغبون ، وتبدو القيم والعادات لا تستند إلى الواقع بل إلى المتخيّل الرديء . .المهم أننا خسرنا صورتنا الحقيقية لأجل حفنة من الدراهم والريالات . ."

بدت مقتنعة بعض الشيء ، أو ربما غير مهتمة أساساً بمعرفة الحقيقة و قالت مغيّرة الموضوع في رد حيادي : الله غالب . .!

أحيانا أحتار في الوصف الذي أطلقه على سعيدة ؟

مرّة أتخيلها من صنف المناضلات المسترجلات اللواتي ينسين أنوثتهن أو يسحقنها تحت وطأة الأفكار الكُبرى والقضايا المصيرية ، ومرّة تبدو لي أنثى شَهوانية الإيحاء ، وأحياناً مثقفة أميّة تناقش في الديالكتيك والنزعات المادية ، و الفلسفات الأوروبية ، وربّما تبدو في

وقت آخر عروبية صرفة ، سليلة قبائل بني هلال التي اجتاحت المغرب الأكبر ذات زمن غابر ، وثورية حالمة ، تودّ لو تحمل السلاح وتقاتل المحتلين من الاسكندرونة إلى سبتة ومليلة مروراً بفلسطين . .!

كان ما بيننا من تقارب يزداد يوماً بعد يوم ، وكنتُ أشعر لمرآها بانجذابٍ غريبٍ ، وبأنّي خفيفٌ أودّ لو أطير في الهواء أو أسير على الماء . .!

كانتْ الضوءَ الذي
يضيءُ لي غُربتي
وضيقَ الأمكنةِ عليّ
والهواءُ الذي ينفثُ
فيّ الحياةَ
حينما تفترسني
بأنيابها
قطعانُ الحنين . .!

جسدُكِ بصيرٌ

ويدي عمياءُ ، فاقتربي الآن أكثر ، ودعيني أجوسُ مجاهلك ، يا للغبطة المقطّرة ، وهي تفورُ من جسدينا ، كنت أظنّك صعبةَ المراس قُربي كما أنت في النقاشات ، و تصاريف الحياة ، فكيف ذبت حنيناً ، ووجداً ، تُسلمينني جسداً جامحاً ، وروحاً قلقة ، تركنينَ سعيدة المتوفّزة خارج الباب ، وفي عَرَصاتِ المدينة ، وتأتينَ وادعةً ، تتلّوين من فرْط اللذة ، وتعزفين بأناملك على أوكار الرغبات حتى تلين ، وتنتفضين صاعدةً إلى الأعالي ، فمن يصدق أنك أنت هنا ، غيرك هناك . .!

كم بدوت شهية وأنت تكشفين لي عن جسدٍ ريّانٍ بمباهج فاتنة ، وثمرٍ دائخ من الاستواء . لم يكن الأمر هيّنا أن تقبلي تلك الحالة من التسليم والوداعة ، كنت قد التقيتكِ في أيام أُخَر ، عبرنا فيها شوارع كثيرةً ، وجلسنا تحت أكثر من مقهى ، كنت معجبةً بأفكار الطاهرحداد حول حرية المرأة ، وكيف ناصَرها ، وهو شيخ زيتوني ، في ذلك الزمن المبكر من العشرينيات ، وواقعةً تحت سطوة أفكار نيتشة الوجودية ، وتنظيرات ماركس المادية ، كنت قلقةً ومُقلقةً معا ، دمّرتْ كُتب الفلسفة نصف طمأنينتك ، وعصفت بالباقي حساسيتك المُفرطة ونزقك تجاه الناس والعالم ، وها أنت تتمددين عارية من كل ما يعكر مزاجك ، نصعد معاً إلى مقاماتِ اللذة ، تعتذرين دون ندمٍ عن عذريتك التي أطاح بها صديقك الأثير ذات ليلةٍ بموافقتك ، تقولين إنّك لا تفكرين

بالزواج أصلاً ، وإنّه إن جاء في قادم الأيام فإنّ على الرجل أن يتفهم هذا الأمر الشديد التفاهة ، و إلاّ فليذهب إلى الجحيم ولا أجادلك في تلك اللحظات من الصفاء المطلق ، وأنت تبوحين بهواجسك ، وقد تفتّحت ورودُ ذاكرتك على الاعترافِ ، واجتاحتك عواصف النشيج المغموس بالحنين وانكسار اللحظات الراحلة :

الدّقلة في عَراجينها

كانتْ تتحداني أولّ صباي كي أصعد إليها ، وأقطفها . كنتُ طفلةً شقية أشارك أخواني العمل في الفلاحة ، وتولّدت لديّ علاقة خاصة بالنخلة ، أحسبُها قريبةً لي ، وأنها أنثى تنتمي لجنسنا نحن النساء . آه كم أُعجبت بعراجينها المثقلة بالتمر وهي تشمخُ عالياً نحو السماء ، أمّا أبي ، ذلك الرجل الصامت ، فهو ينحدر أساسا من قبيلة عربية بدوية . ما زالت لدينا في الجنوب سطوة القبائل مثلما لديكم أنتم أو ربما أكثر ، نحن نسميها« العروش» ، وأنا أنتمي إلى واحدةٍ من أشهرها هناك . صحوتُ على الحياة متمردةً ، رغم سطوةِ الذكور من حولي ، ولهذا رحت أتشبّه بهم ، وتستهويني ألعابهم منذ يفاعتي ، وهكذا ظلّ هذا الهاجس يلازمني حتى اليوم ، ربما لتفاصيل عائلتي ما ساعد على تفاقم هذا الأمر ، وربما أيضا هرباً من ضعفي الأنثوي .

كان أخي الأكبر بعثياً ، درس الحقوقَ في بغداد ، وحين عاد ، ظل محط أنظارِ رجال الأمن في عهد بورقيبة ، وكنتُ قد تتلمذتُ على مكتبته وأفكاره ، لكنّي اقتربت أكثر من الفكر الماركسي بعد دراستي الفلسفة في العاصمة هنا ، وتعرّفي على« لطفي» زميلي في الجامعة الذي كان يكبرني بعامين .

كانَ ما بيننا شيء أقربُ إلى العلاقة الحزبية والصداقة أولّ الأمر ، وسرعان ما اجتاحتنا العواطفُ البكر ، والرغبات المكبوتة ، ولكنّ كلّ شيءٍ انتهى الآن ، وبدا كلّ ما كان يقوله لي محض كلام مرحلي سرعان ما انطفأ ، ربما قادتهُ مصالحه إلى عوالم أخرى جديدة ، بعيدة عن أحوالي ، وربما كان نزقي وتقلباتي السبب الأساس ، لستُ أدري . . ، ولم يعد يهمّني الأمر ، لكن من المؤكد أن خياناته قصمت كلّ شيء بيننا . .!

تعلمتُ التدخين ، وصار إدماناً عندي في لحظات اليأس ، وكثيراً ما لجأت إلى الخمر ، وعادةً ما أدخل حانةً وحدي لأشرب شيئا من النبيذ أو البيرة دون أن أحسب لأحدٍ حسابا ، وقد يظنّني بعض السكارى صيداً سهلاً مثل أي بائعة جسد ، لهذا كثيرا ما تعاركتُ معهم بالسباب ، كنت أتساءل لم يحقّ للرجال أن يمارسوا الحياة كما يرغبون ، ويحرمونا منها ؟

مجرد جلوسي في مقهى لوحدي كان أيضا كفيلاً بتبرع العشرات بالعروض الفجّة ، والدعوات الداعرة ، فما بالك بدخولي الحانة .

كان الصبيُّ الشقيّ الذي في أعماقي ينتفض فجأةً ، ويتمردُ على الأنثى الهادئة ،وطالبة الفلسفة ، وابنة العروش الصحراوية ، لكنّني كنت أخرجُ من كل حانةٍ بنشوة هائلة ، وأرغبُ بركلِ العالم كلّه بقدمي ، مرّة تناقشت مع لطفي حينما اكتشفت خياناته المتكررة لي مع صديقاتي ،وبنات الهوى العابرات :

– لماذا تعتبرون المرأة عاهرةً إن تعدّدت علاقاتها ، ولا تطلقون على أمثالكم الرجال العواهر . .؟

لماذا تبدو أجسادكم مشاعاً لكلّ راغبةٍ . . . ألا ترتوون من هذا العطش الأبدي ؟

لم ينبس بحرف يومها ، وكثيراً ما توقفنا عن الكلام واللقاء ، حتى يعود من جديد متذللاً طالبا السماح وعودة العلاقة إلى توهّجها ، ولكن الأمر بدا لي غير قابل للاحتمال ، فتراختْ اللقاءاتُ بيننا حتى انتهت تماماً . .!

كنت أيضا تحت عيون رجال الأمن وأعوانهم من الطلبة ، مرةً يسألونني عن أخي البعثي السابق وأخباره ، ومرّة عن نشاطاتي في اتحاد الطلاب ، والخروج في المظاهرات . .!

" حاصيلو انا فدّيت ، وصدقني صرت نكره السياسة واللي يجي منها . .وأنبرنسيبل[1] ما عادشْ انجّم دونك[2] يلزمني نرتاح . ." .

١- en principe : مبدئيا (فرنسية)

٢- Donc : إذاً (فرنسية)

ما عادشْ انّجّم [1] . .!

تلك لازمَتُها الأثيرة التي كانت تُطلقها بين الصمت والصوت :

« ماعادشْ انجّم نِقرى تعبتْ ياسر من المِنهاج والمدرسين . . ما عادشْ انجّم نِتكيفوا صدري تعبّى دُخان ، ما عادشْ انجّم نُقْعدْ بهالبلادْ نحبْ نمشي باري[2] ، ولا لوندرة[3] ، ما عادش انجم نشوفك على خاطر ولّيت مدمنة عليك وضعيفة . . . ، ما عادشْ انّجّم نخزر للصحف على خاطر معبية بالكذب والنفاق ، ما عادش انجّم نروح قابسْ على خاطر باباي وماماتي دِيما يقلقلوا علي فدّيت من حبهم ،ما عادشْ انجّم ناكل المقرونة بالطماطم واليوغرت في مطعم الطلبة . . . . . ما عادش إنجّم نركب المترو ولاَ الحافلة من كثرة التبزنيس والتبوليد . . . . . سي با بوسيبل[4] . . »

لكنها كانت بعد كلّ قولٍ لها تطبّق عكسَه ، وتغرق في تكراره من جديد كالمُسرْنمة بلا أيّ خيار آخر ، ما عدا تركها البلاد وسفرها إلى فرنسا أخيراً . كان هاجساً ماحقاً تلبّسها في سنتها النهائية من الدراسة ، وسرعان ما استطاعت أن تدبّر قبولاً في إحدى جامعات باريس لتكمل دراستها العليا .

١- ما عادت انجم : لم أعدأ استطيع أولاً أقدر (لهجة تونسية)

٢- باري paris : باريس (فرنسية)

٣-لوندره londre : لندن (فرنسية)

٤- c، est pas possiple هذا غير ممكن (فرنسية)

غادرتْ دون رجعة كما فهمت من رسالتها اليتيمة ، كنتُ بالنسبة لها عامل إعاقة يقف في وجه جنونها وطموحاتها ، وكان من الواضح في آخر أيامنا أنّها كانت تغلّب عمل العقل على الانجرار خلف العواطف الشعثاء ، وبدتْ منسجمةً في قراراتها مع شخصيتها الشائكة ، رغم ما نالني من الفقد وضيق الغربة عليّ من دونها ، كانت تبدو لي أحيانا مشروع انتحارٍ قريبٍ أو مرضٍ نفسي يقودها إلى الظل ، ولكنّها في لحظةٍ حاسمة ، قررت كل شيء ، وغادرت بعد أن فاضت به تماما :

« . . . . قيسْ . . بربّي سامحني ، وأدري أنّك ستفعل . . أنت ربّما الشخص الوحيد في هذا العالم الذي استطاع الولوج إلى أعماقي القصية جسداً وروحاً ، ولكن كان لا بد أن أجد الحياة ، إنّها حقاً في مكانٍ آخر . . . . . وهي أيضاً بالنسبة لك فلا تهادن كعادتك ، فكر أن تجيء هنا وأعرف أنك لنْ تفعل . . . ، لست أعوّل على شئ ، فقط على ذكرياتنا التي أقتاتُ منها كل مساء ، وأنا أحتضنُ طيفك ، ولست أدري متى تنفد هذه الذكريات وأعانق الخواء .

علّمتني أشياء كثيرةً ستكون لي مثل القبس وسط العتمة ، ولا أدري إن كنتُ علمتكُ شيئاً ما عدا تقلبَ المِزاج ، أُدرك أن الفراق صعبٌ ، غيرأنّي لست أدري إلى أي جحيم أو جنّةٍ سيكون مصيري . . ، لا بدّ أنك عثرت من بين أوراقك المكدّسَةِ وكتبك يوما على شيء من تداعياتي ، أو ربما هواجسي الفلسفية ، التي كانت تنهالُ عليّ من

كل الجهات إقراها إن وجدتها تعرفني أكثر ، وربما تعذر قسوتي على نفسي أولاً ثم عليك ، رغم أنّه فات الأوان لذلك الغفران ، ومضيت إلى هنا دون أدنى تفكير بالرجوع ، والآنْ وأنا أودّعك لا أملك غير تذكر تلك الأبيات التي كنت تقرأها عليّ لشاعركم المنتحر السبول فهي تعجبني« برْشَة برْشة»[1] :

أنا يا صَديقي
أسيرُ مع الوهْمِ
أدري
أيّمم نحو تُخوم النِهاية
نبيّاً غريبَ الملامح
أمْضي
إلى غيرِ غاية . .!

١- برشة : كثيراً (لهجة تونسية)

نَهْجْ عبدالله قَشْ

لا تقل يا رَجل إنّك لا تعرفه . .!

أخبرني الطيّب بن محمود مندهشا ذات مساء ، كان رفيقي في الحانات أحياناً ، وزميلي غالباً في مقهى الجامعة ، وقاعات المحاضرات ، ثم أعاد مشدداً :

– نهْج سيدي عبدالله . . كِيفاش . . مَنيش مْصَدْقك ، معظم الطلبة المحرومين أدّوا الواجب هناك . .!

كنت قد سمعت بهذا الاسم من قبل ، وبدا لي غائماً ، إذ كنت أربط كلمة « سيدي» بمقام وليٍّ أو فارس نبيل ، ولستُ أذكر كيف انبثق ذهن الطيّب عن هذا السؤال . كنا نجلس في بار مخصص للكتاب أو أصدقائهم ، وكان الطيّب واحداً منهم ، أعني من أصدقائهم ، إذ كان يتلمسُ طريقه في ذلك العالم المتشابك للكتابة على صفحات جريدة « الصباح» ، وعرفتُ أيضاً أنّه يقرض الشعر . وكنا قد بلغنا معاً درجة عاليةً من الدوخان ، بفعل النبيذ المرافق لسيل من النميمة غير المنعشة والثرثرة ، و التقلّب في الموضوعات حتى وصلنا إلى النساء ولأكن دقيقاً وأعترف بأنّنا لم نغادر هذا الموضوع الأثير أصلاً إلا لماما ، بدا لي لازمةً لكلّ مجالس الرجال ، وأحسست بتشويق الطيّب لي للتعرف على العوالم السرية للذائذ المحرمة في«المدينة العتيقة» أمراً ملحاً ، وراح يتبرّع بالشرح المُسْهب عن تاريخ الجنس عند العرب ، وكيف أنّ دور الدعارة

قد انقرضت في معظم البلاد العربية بعد منتصف القرن العشرين ، ولكنّها ما تزال قائمةً ومرخصةً هنا ، وهذا أمرٌ« يعكس مقدار الانفتاح عندنا والعقل المستنير . . . ثم إنّ كتاب الشيخ النفزاوي – الروض العاطر – يباع هنا على الأرصفة ، وقد سمعت بأنه ممنوع في كل البلاد العربية المتخلّفة» ، ولم أميّز حينئذ إن كان الطيّب يتهكّم أم يدافع بحماسه ، فقد كان مرّة يرفع صوته ،ومرة يهمس لي همساً ، ثم فجأة طرأ على باله أن يقرأ لي قصيدة من ديوانه المحلوم به« مدارات العاشق المطعون» ، وكانت كافية لأن تُدير لي رأسي تماما ، لكنّا لم نفترق تلك الليلة حتى اتفقنا على موعدٍ لأن يصطحبني إلى هناك .

لوْ أتزوّج شاميّة

خيرٌ لي ،وأنا أتلمّس تطبيق مثلكم « إللي بتزوج شامية بعيش عيشة هنية» ، وأضاف الشاعرُ المطعون حانقاً :

تعرف أنّ النساء لدينا أخذن حقوقهن الكاملة ، وربما حقوقنا أيضا ، « وما عادوش يحشمو » ، والقوانين تمنع علينا الزواج بأكثر من واحدة ، بعكس الشريعة ، ثم أنت تدري بأنّني لستُ متديناً ، ولا أهتم إلا بتطبيق هذه النقطة منه على الأقل ، وفاءً لأجدادنا « ولا كيفاش» أنا حر يا أخي ، ثم أنّ الشاميات كما سمعت طريات ، فاتنات يحترمن الزوج ، ويخدمنه دون تذمر ، « تنجّم تقول» عناية كاملة ، «وزادة»

طبّاخات ماهرات ، أحيانا أذهب لبيت أصدقائي الفلسطينيين أو السوريين الذين يقيمون بيننا ، يا أخي« القرع بالأرز واللحمة المفرومة ، شيء لذيذ ، تسمّونه الكوسا محشي ، وورق العنب ، والملفوف ، والبابا غنوج ، والحمص بالطحينة ، والمقلوبة . . .« شي بنين[1] ياسر» ، أفضل لبنانية طبعا ، أتعرف لماذا ؟

تصيبني الرعشة اللذيذة للهجتهن التي تفوح منها الرغبات « تسلملي حبيب ألبي . . لك وينك يا حلو يا مهضوم» . . .

يا لحفيدات عليسة المغناجات . . !

قادني الطيُّب إليه

أدخلني أولاً في« نهج زرْقون » الذي يبدو مثل مدخل سري للمدينة العتيقة ، وقد ازدحم بالباعة الذين يفرشون بضاعتهم على دكّات خشبية ، وينادون على المشترين . بدت الملابسُ والأدوات الكهربائية والعطور وأدوات الزينة ، المستوردة أو المهربة ، محشورةً في الحوانيت من كل نوعٍ وشكل ، وقد اختلطت بالأصوات المنطلقة من الكاسيتات للشيخ العفريت ، ولنبيهة كراولي ولطفي بوشناق ، ومغنيّي الراب الجزائريين ، وإغواءات الباعة الملحاحة للمشترين أو المتفرجين .

١- بنين : لذيذ الطعم (لهجة تونسية)

فجأةً ينقطع هذا السيل الجارف من الباعة وأصواتهم وبضاعتهم ، و ينفتح زقاق شبه مظلم تحت أقواسٍ بُنيت فوقها البيوت المتلاصقة ، وقد تفرّع بي الطيّب إلى أزقةٍ مظلمةٍ لا تكاد تتسع لأكثر من عابرين معا .

شعرت بالرطوبة تنزّ من الجدران التي تكاد تهصرُ الأجساد العابرة بينها ، وأوصاني بأن أكون عاديا وأكتم اندهاشي حتى لا ينتبه لارتباكي بعض حثالة الرجال المتجولين هناك من« الباندية»[1] والمهمشين ومقتنصي النشل» ، ويعرفون أنني غريب عن البلاد ، وربما أكون صيداً سهلا لعبثهم رغم أن المكان مراقب جيداً من رجال الأمن السريين . كان سيلُ من المارّة يجيئون ويذهبون بتقطعٍ واضح ، حتى وصلنا « نهج سيدي عبدالله قش» ، وقد انفرج إلى صفّين من البيوت الطينية الواطئة المداخل ، امتلأت أبوابه بالمتفرجين والباحثين عن المتع العابرة . بدا لي المكان قديماً ومستهلكا في بنائه ، وفيما يحتويه من نساء مجرّبات ، قد أكل الزمن وتقلب الرجال عليهن ما تبقى لهن من جمال أو قدرة على الإثارة ، شعرت بالغثيان ، ولا سيما أن الروائح العطنة كانت تملأ الجو ، خلطةٌ من رائحة السجائر ، وأنفاسِ الرجال المتلاحقة ، والعرق الراشح منهم ، والعطور الرخيصة المرشوشة على أجساد النسوة ، والدهونات التي تحاول أن تصلح ما أفسده الدهر . .!

١- الباندية : رجال العصابات (لهجة تونسية)

بدا لي همس الطيّب الماكر بأن أختار واحدة من صاحبات الغرف التي تنفتح على غرف أخرى قد غطيت بستائر حمراء ، ويقف على بابها القواد الذي يأخذ الفلوس من الراغبين أمراً يزيد من رغبتي بالقيء . كانت بعض الغرف مطلوبةً أكثر من غيرها بمن فيها من غانياتٍ بدوْن أصغر قليلاً من غيرهن ، ورأيت صفا من الرجال المتحفزين للدخول بفحولة ضاغطة ينتظرون دورهم . قلت له إنني رغبت فقط بالتعرّف على هذا المكان وربما لمرةٍ واحدةٍ فقط ، وإنني أشعر حقاً بالقرف ، وأشفقُ على هؤلاء النساء اللواتي قادتهن الظروف البائسة إلى مثل هذه المهنة التي تسحق إنسانيتهن ، وأردفْتُ :« نساءٌ معطوبات الأرواح والأجساد» .

لم يكن الوضع مناسباً لأي نقاش ، واكتفى الطيب بأن هز رأسه ساخرا مشيرا إلي لأحتفظ بتنظيراتي الطوباوية ،وقال «هذا وكر الرغبات المشروخة للمحرومين ، وهؤلاء نسوة يمارسن أقدم مهنة في التاريخ . .» وأضاف مفصلا . « لقد زاره كبار الأدباء العرب والصحفيين ممن يأتون إلى تونس ، بعضهم جئت به أنا وآخرون أتوا مع غيري فلا تقلق» .

شعرت وأنا أتابع التنقل من بابٍ إلى آخر ورؤية ما فيه من أجساد مبذولة للدافعين خمسة دنانير أو أكثر بمن يربت على كتفي ، وانتبهت فإذا خلفي أربعةٌ من الطلبة الذين أعرفهم ، كانوا من أبناء بلدي ، وما يجاورها ، وكنت قد تعرفت عليهم من قبل ، وتزاورنا مراراً ، ودهشت لأنّهم من طلبة الزيتونة ، وقد صار لهم سنتان أو يزيد في الجامعة .

ألجمت المفاجأة ألسنتنا كلنا ، فقد لاحَ لي أنّهم استهجنوا وجودي هنا ، مثلما فعلت أنا ، كنتُ أكبرهم سناً ، وأسبقهم إلى الدراسات العليا ، وشعرتُ بأنّهم أيضاً في ورطةٍ كونهم من الدارسين للشريعة وعلوم الدين ؛ ولكنّي تجاوزت وإيّاهم الموقف المُحرج بكثيرٍ من التلعثم والتبريرات المفتعلة ،وساهم الطيّب ، الذي عرّفته عليهم في السؤال عن الطالب الكفيف الذي يقودونه معهم وإثارة جوّ من الودّ والتخلص من الحرج« إش بيك سي نورمال [1] . .مش قلتلك من الأول . .» .

عرفت منهم أنهم يأتون هنا مرّة كل شهر على الأقل ، وأنهم أحيانا يختارون امرأة ليتناوبوا عليها ، وقد رغب « عبد الرحمن» أن يكون معهم ، أو ربما أغروه بالمجيء ، قال لي أحدهم همساً بأنّهم أشفقوا عليه ، من كثرة ما كان يحدّثهم عن النساء ، ويختار سورة يوسف نموذجاً على إغوائهن وكيدهن العظيم الذي لا يقاومه غير الأنبياء . كان المشهدُ سرياليا ، إذ يتواطأ ثلاثة شباب ممن قادهم حظهم أو ترتيب بعثاتهم الدراسية العشوائي إلى جامعة الزيتونة للقيام بدور الوسيط بين إحدى النساء المنتهكات تماما وعبد الرحمن الذي لا يرى بغير حواسه ، والذي بدا منكسر الخاطر . قُدّر لي أن أشهد فيما بعد ، تلك الحوارات المقتضبة بين من يقود ه ، وتلك المومس البائسة الملامح ، قال لها بأنّ صديقه سيدخل أولاً وأنه سيوصله إلى السرير ، ويتركه معها ، قالت إنها لا تفعلها مع أعمى .

١- C، est Normale : هذا طبيعي (فرنسية)

أشار إليها بأنه سيدفع لها المبلغ مضاعفا ، وأنّ الأمر لا يتعلق بعينيه ، المهم أنه« راجل» ، وحرك جذعه بطريقة مبتذلة .

ردت بعنف «إش بيك ياطحّان ماتفهمش . .قلْتلك مانرقدْش معاه . .» . .!

وأشارت إليهم أن يخرجوا ، قالوا إن هذه العاهرة غريبة الأطوار ، وذهبوا ليجرّبوا حظهم مع غيرها ، بدا على« عبد الرحمن» الغضب المخلوط بالإحراج ، لكنّ رفاقه قادوه إلى مهجع آخر سرعان ما غطس فيه بعض الوقت ، فيما تناوب الآخرون على غرَف أخرى ضمّت نساء لم تستطع الأصباغ الرخيصة ، والابتسامات المتصنعة أن تخفي خلفها أخاديد غائرة في الأجساد والنفوس ، وقلت للطيّب ونحن نغادر المكان : يبدو أن« الطَحّان» كلمة كبيرةً عندكم . . .!

فأومأ بالإيجاب شارحاً لي معناها : «قوّاد أو من يرضى الفاحشة بأهله» .

قلت : تصوّر أنه لا دلالات سيئة لهذه الكلمة عندنا ؛ بل تعني من يطحن القمح . .!

قال ضاحكاً في واحدة من تجلياته :

أعرف ولكنّنا نتجنب ذكر هذه الكلمة ، ونستخدم بدائل لها مثل « الرحّاي» ، أو رحي القمح بدل كلمة« الطحن» أمّا «الطحين» فنسميه «الفلينة» ، بالمناسبة سمعت أن كلمة« عكروت» لديها دلالات سيئة عندكم أيضا ، تصوّر أن لدينا قرية تسمى« العكاريت» . . . !

الكلماتُ بيضاءُ يا صديقي ومحايدة و لا ذنب لها ، ونحن نلوّثها بنوايانا الفاسدة" .

هذا دواءٌ لبرودةِ الفرج

رأيت وصفُهُ مكتوباً بخط الرقعة وسط المخطوط ، وقد نُقل إليه من قلم الفقيه العالم بسر مدارك الحواس الخمسْ ، ومباهج النفس شهاب الدين التيفاشي القفصي قاضي مصر وتونس ، ولم تسلم من تصرف النُسّاخ على ما ظهر منها ؛ لكنّها ما زالت وصفةً لا يأتيها القصور من بين كلماتها :

هات يرحمُك الله أوقيةً من بزر الخردل ، ودقّها حتى تنْعم ،ورشها على صوفةٍ سوداء لنعجةٍ ولدت للتوّ ، ثم اسقها من الزيت الطيّب حتى ترتوي ، وضعها على فرْج المرأة بعد الطهر بثلاثِ ليال ، ثم جامعها بقوّة الحرّاثين يطبْ لك الوطءُ وتنزّ من شقّها الحِمَم . .!!

فإن لم ينفع هذا فلا تركن إلى اليأس والقنوط ، فذلك أمرٌ معروفٌ ومجرّب لدينا ، وأعلم بأنّ الرحمَ مربوطٌ من سحر آدميٍّ ، أو من المنظور من الجن ، فجرّب حينها أن تأخذ قبضةً من الكمّون الأبيض ، والفلفل ، وحصا لبان ذكر ، وسخّن كلّ مادة لوحدها فوق نار حطب البلوط ، ثم اجمعهم في صحن واحدٍ من فخّار مطبوخ بنار الشمس ، واضرب المواد بعسل نحلٍ منزوع الرغوة مع بَياض بيضٍ لا يخالطه صفار ، فإن تكثّفَ المزيجُ ابسطهُ على وبر جملٍ قصّ لأول مرّة ، وقلْ للمرأة أن تضع ذلك على الباب الوهاج بعد آخر قطرة من دم الطمْث ، فإنّها بمشيئة الله لن تصبر بعد ذلك عن المواقعة كل يوم . . .!

أما دواء العنّين بارد الهمة ، فذلك أمرٌ لدينا تدبيره إذا سحنت زعفران وعفص مع قرنفل ومرارة بقرة حمراء من كل جزءٍ مقدار درهم و . . . . . .

(ناقصة من المخطوط الأصلي ويظهر أن أرضةً قضمت باقي الوصفة وسأحاول إكمالها لكم من عندي إن وجدت متسعا في قادم الصفحات لأنّي جربتها بنفسي أنا أبو عيسى الوراق) . .!

هذا ما وجدتهُ

من أوراق سعيدة ، أو لأقل حقا بعض ما كانت قد تركته لي مندساً بين كتبي وأوراقي ، ولو لم تشر إليه في رسالتها الباريسية ، لظلّ مركونا في النسيان ، والحقيقة أنّه ليس بشيء يعوّل عليه ، فهي تعليقات أو مقتبسات من دروس الفلسفة التي كانت تتلقاها في الجامعة مخلوطة بهلوساتها ، وإنّي لأنقل بعضها كما وجدتها :

اختلطت الأمور عليّ . . في الصباح جاء الأستاذ الخضراوي ، و خاض طويلاً في آراء أفلاطون ، ثم طلب منّا أن نُلخص شيئاً من مقولاته ، فكتبت حينئذ ما علق منها في رأسي :

« المادة أزليةٌ والله صنع الموجودات كلّها منها ، المعرفةُ الحقيقية هي معرفة عالم المُثل حيث الثبات والديمومة ، أمّا العالم المادي فهو زائل ، و نسخة مشوّهة عن العالم الحقيقي القابع هناك في الأعالي . .

النفس خالدة وهي من طبيعة غير مادية تهبط إلى الأجسام البشرية ثم ترحل عنها . .» .

رحلنا مع أفكار أفلاطون وحماس الخضراوي له إلى السماء ، وفي المساء جاءتنا « مدام بن ساسي» لتعطينا درسا مختلفا يجعلنا نرتطم بالأرض وننسحق تحت وطأة واقعها ، قالت إن أفلاطون أخطأ ، والإيمانُ أعمى عقله ، أمّا أفكاره فقد عفا عليها الزمن ، ركّزوا معي على مفكر مثل ماركس أطاح بكلّ تلك الأوهام بضربات متلاحقةٍ ، وراحت تصرخ بها أمامنا كمسلمات لا جدال فيها :

« وحدهُ العالم المادي هو العالم الحقيقي . . . فلا شيء خارجه وعلى الأخص الإله . . . .!

العقلُ ليس إلا نتاجا لعضو مادي هو الدماغ . . . .

العالمُ هو الحقيقة الوحيدة ، والقوانين التي تحكمه حتمية . .»

قلنا لها : والدين ما دوره إذا ؟

ردّت مؤكدةً بمقولات ماركس التي تحفظها غيبا :

« الدين وسيلةٌ ممتازة في أيدي المستغلين من إقطاعيين ورأسماليين وغيرهم من أجل السيطرة على الجماهير ، وكبح جماحها والتأثير فيها

. . .إنّه يحول نظر البروليتاريا للتفكير بوسيلة الوعد بمآل أفضل بعد الموت» .

وقلت لها مرة : ما رأيك بما قاله جورج باركلي بأن الوجود هو الإدراك وكل ما لا يدرك غير موجود . . والدين يقوم على الخوف . . «أجابتني فرحة :سي فغي[1] .فتحوادماغكم تلقوا الحقيقة واضحة . .!

ذات يوم آخر ، من فصل آخر ، أخبرنا الخضراوي بأن بيرغسون الفرنسي مرّ بكل هذه الفلسفات المادية واهتدى أخيرا إلى أن الإنسان المتأمل وحده الذي يدرك الديمومة ، وأن التجربة الصوفية تثبت إلى درجة اليقين بقاء الروح بعد الموت . .»

ترددنا بين الأمل بحياة أخرى تحتمل خيالنا الجامح ، وبين الحكم بقضاء الدنيا وواقعيتها القاسية والمجردة عن كلّ حلم مثل أي عقوبة . . ، المشكلة أن الخضراوي كان متحمساً ومؤمناً تماماً بما يدافع عنه من أفكار ، وكذلك كانت مدام بن ساسي ، و كان أخي يقول لي دائما « نحن أمةٌعربيةٌ واحدة ذات رسالة خالدة» انتبهي إلى هذه الحقيقة ، ودعي العالم يسيرُ في غيّه وفلسفاته المضللة التي جاءت من الغرب . .تاريخنا واحد ولغتنا واحدة ودیننا واحد فكيف نتفرق . . لدينا تفكيرنا الخاص الذي بنينا به حضارة كانت منارة للعالم ، وآن الأوان لنستعيد مجدنا التليد . . .» .

١- سي فري C، est Vrai : هذا صحيح

أحيانا كنت أحسّ أنني اتفق معه تماماً ،وأشعر أحيانا أخرى أننا لن نلتقي أبدا على شيءٍ مشتركٍ . . .لا أدري أهي تقلباتي المعتادة أم المرحلة المضللة التي تقود إلى حيرة تعقبها حيرة . .!

أمس دخلنا سنةً جديدة ، جاءنا أستاذ جديد ، شابٌ متحمس ،خريج السوربون ، قال لنا في أول درس له :

« لا تقولوا لي إنّكم لم تقرأوا سارتر . . ، كيف سأبدأ معكم وأنتم لا تعرفون نيتشة وكيركغارد وهيدغر قبله . . . يلزمكم الكثير من القراءة هذا العام والباقي عليّ في إثارة النقاش . .»

قالت زميلتي سونيا وهي تتملى ملامحه اليانعة :

« هذا البروف[1] يشبه نجوم السينما . . .تحفون[2] ياسر . . ولكن أفكاره مزمرة . .»

آه يا ربي كيف سأوفق بين كل هذه الفلسفات وأصحابها : كروتشه الإيطالي ومثاليته ، وبرتراند راسل الإنجليزي ودعوته لنزع كل رومانتيكية من الفلسفة ، وهنري بيرغسون وتصوّفه المسيحي ، وماذا عن براغماتية شيللر ، وذرائعية ديوي ، ووجودية ياسبرز ، وتاريخية نيتشة ، وتجريبية . . . . .

١- Le Pro . : مختصر لكلمة الأستاذ أو البروفيسور (فرنسية)

٢-تحفون : ظريف أو يعجبني (لهجة تونسية)

تحليلٌ وحفظ .....كتابة تقارير... تحليل ..حفظ... جلسات مناقشة ... امتحانات ... تحليل ... حفظ ... هموم الحياة اليومية ...!

لطفي كان معجباً جداً بلينين ، وكيف فرض بالقوة نظريات ماركس وإنجلز على الحزب الشيوعي من أجل بناء الدولة ، وأحيانا كان يميل إلى نظريات ماو وتطبيقاته ..!

كل فلسفة يعتقد أصحابها أنها وحدها تمتلك الحقيقة وما سواها باطل ..المشكلة أننا نردد مثل الببغاوات أقوال من سبقونا دون أدنى تمحيص ...!

أفضل شيء اكتشفته الاطمئنان لفلسفة ما ، والعيش وفقها حتى يأتي أوان غيرها ... ، المهم أن يتوازن الفرد بدل القلق الدائم ...هنيئا للمطمئنين في جهلهم ... أما أنا فقد كتب عليّ القلق يوم ولدتني أمي ، ولا مفر منه على ما يبدو لي حتى أموتْ ..!

مثلُ العلقمْ

مرّت عليّ أيامُ غيابك يا«هاديا» ، كان يلزمني القليل من طمأنينتك حتى أتوازن ، تورطْتُ في قراءة أجزاءٍ من المخطوط ، مليئةً بالجرأة الصارخة لتعامل أجدادنا مع شهواتهم ، وقد انغمست في قراءة كتبٍ أخرى تعجّ بها المكتبات عندكم ، ولكنّها مفقودة أو ممنوعة عندنا ، ولَم أكتف بذلك بل انهمكت في التجوال في الأسواق ، و قادني الطيّب إلى فضاءات جديدة ، غير أنّي وحتى لا أظلمه فقد أقنعني بأنْ نحضر أمسية أدبيةً في « فضاء ٢٠ أوت للإبداع» .

قلت له بأن مزاجي لا يحتمل النقاشات والجلوس في محافل الأدباء ، وأنا رجلٌ ملولٌ ، و أدرس التاريخ ولا رغبة لديّ في مثل هذه اللقاءات ، فلست كاتباً أو حتى مشروع كاتب مثله ، لكنّ إلحاح الطيّب وحماسه جعلني أتبعه ، وتلك كانت المرّة الأولى لي وقد رغبت أن تكون الأخيرة ، كانت القاعة الضيقة مزدحمةً بالحضور والدخان ، اخترنا كرسيين قريبين من المدخل لسهولة المغادرة ، و فهمت من الطيّب أن الأمسية مخصصة لمناقشة مجموعة قصصية لقصّاص جريء اسمه حسن بن عثمان ، وهي «عباس يفقد الصواب» ، وراح الرجل يحدثني عن «بن عثمان» وقصصه بشكل مقتضب قبل أن تبدأ الجلسة ، بدا لي أن القصّاص كان مغتبطاً بالحضور الكثيف والتقديم المسهب والمادح من مدير الجلسة . قرأ بعض قصصه القصيرة ، وانفتح بابُ النقاش ،

ورُفعت الأيدي من بعض الحضور . اختار مديرُ الجلسة واحداً منهم ، قال الرجل بعد أن تنحنح بأنّه لن يطيل ، وأن ثمة ملاحظة مهمّة يريد أن يسأل عنها القصاص وردت في نصه :

« لقد تحدثت عن سرير بطابقين نام عليه البطل ، وأنا أذكر أنني كنت ذات يوم في صباي في مدرسة داخلية مماثلة ، وأذكر أن الأسرة كانت مصنوعة من الخشب وليس من الحديد كما ذكرت ، ولهذا أحببت أن أنبهك إلى هذا الخطأ الفظيع . . .»

ابتسم بن عثمان كاظما غيظه و مجاملاً الرجل المجهول الذي بدا متسللاً للأمسية ، انفتح النقاش بعدها للردود ، ودار خلاف حول نوعية الأسرّة ، وشكلها ، وأهميتها . .!

ظهر أن الجلسة قد ذهبت إلى غير غايتها رغم محاولة بعض المناقشين الانتباه لهذا الانزلاق في الحوار ، والدخول إلى تفاصيل فنية في اللغة والأسلوب ، وهذا ما جعل القصّاص يطلب الإذن ليغادر القاعة قليلاً .

كان الحضور منشغلين بالنقاش عن تقنيات السرد المخلوطة بتقنيات صنع الأسرة ، وكاد بن عثمان يفقد صوابه ، وهو يدخن خارج القاعة وفهمت من بعض ما قاله وهو يتمتم بغضب جلي :

مِشْ معقول . . . الواحد يا ربي يتدمّر من أجل كتابة قصة ، ويأتي أنصاف القراء والكتبة ليقودوه بنقاشهم إلى الندم على فعل الكتابة كلّه . .هذه آخر مرة أشارك فيها أمسيات من هذا القبيل . .!

عرفّني الطيب أثناء مغادرتنا على مجموعة من أصدقائه أو معارفه على الأصح ، وكان كريما في إطلاق الصفات عليهم :" الشاعر المبدع س ، القصاص المعروف ش ، الشاعرة والروائية معاً ف ، الأديب الأول ق ، الناقد الشهير . . .

وكان يطلق عليّ عند كل تعريف : صديقنا من الأردن الشقيق ، قيس طالب تروّاز يام سيكل[1] في التاريخ وعاشق للأدب زاده . .!

تركني الطيّب لبعض شأنه ، ووجدت نفسي أتجول في الأسواق ثم ألجُ في عتمةِ« سينما الكوليزيه» ، كان الفيلمُ فرنسياً ، وظهرت صور ملصقاتهِ المعروضة بسخاء على المارّين مثيرة ، نساء في أوضاع ساخنة كأنّها تدعو المارّين أمثالي للتورط في الدخول ، وكان أن فعلت ويا للخسارة لم أنل من الغنيمة المشتهاة إلا الفتات ، مشاهدُ مقطّعة ، ولقطات مجتزأة ، وتأوهات مبتورة ، وقِصّةٍ لم أعرف كيف ابتدأت ولا أين انتهت .كان بقية من في الصالة يطلقون سيلاً من السباب وصرخات الاحتجاج حينما تنقطع بداية المشاهد المأمولة لتحل محلها مشاهد أخرى لا تمت لها بصلة ، ورأيت من مثل ذلك امرأة في الغابة أكلتها الوحدة ، وقد التقت برجلها بعد طول ظمأ ، فلمّا مدّ يده إلى صدرها بعد القبلة الطويلة التي حبست أنفاسنا ، رأينا سياراتٍ تمرّ مسرعةً على طول الشاشة . . . .

١- Troisieme cycle : المرحلة الجامعية الثالثة (فرنسية)

ثم في مشهد آخر رأيت رجلاً يبُصُّ على شابةٍ من شق الباب وهي تتمدد في غرفة النوم فوق سريرها ، ورأى مثلما رأينا معهُ فخذاً صقيلاً يطلّ من طرف اللحاف ثم أنّ الفتاة حرّكت جسدها أكثر فانكشفت بعض مفاتنه ، فقلنا جاء الفرج ، ولكنّا رأينا الرجل فجأةً وحيداً يشتري البطيخ في سوق الخضار . . .! فضجّ الجمهور بالسباب على صاحب السينما و إطلاق الصفير . . . . ، ولست أرغبُ يا هاديا أن أضحكك أكثرعلى خيبتي ، وأنت ذات يوم تقرأين ما كتبته هنا ، أو ربما يأتي وقت تسمعينه مني ، ولكنّي أطمئنكِ أن صاحب السينما لم يشأ أن يخرجنا خائبين ؛ فقد قطع لنا الفيلم الأصلي فجأةً ، وتكرّم علينا بمشاهد ملتهبة لدقائق معدودة ، لم نفهم لها بداية ولا ختما لعله يضمن بها أن نكون من العائدين . . .!

الشيخُ المجرِّبْ

جاءَني في المَنام
ليلةَ البارحة
وهمسَ لي بوصيةٍ ثمينةٍ
لا يقدْرعليها شطّارُ طنجة
ولا حكماء التُرْك :
بزيتِ حُوران
أيها المحروم
زلّق الحلَقَةَ
التي تضيقُ على اللهبِ
جالبةً من أعلى الرأسِ
الماءَ العَكِرْ . .!!

سُفليّون يتمرّغونَ في الملذّات

قادني إلى قُصورهم جدّي« التيفاشي» ، وكانَ يصحبُه ثلاثةُ شيوخ مكحّلين معطرين ، تشعُّ من جباههم علامات النشوة ، وعرفتُ منهُ أنهم « النفزاوي» و« التيجاني« و« الأنطاكي» ، ثم شعرت بأنّهم رشّوا على وجهي شيئاً مثل البنْج فغبْتُ عن الوعي ، وغرقتُ بالوشيشِ

الرتيب وكأنّي رأيتُ بعدها ما يُدوّخ الألباب ، مِمّا لم يُذكر في كتاب :

الجوَاري المبذولات للراغبين فوقَ الأسرّة والنمارق

الأميراتُ المَسبيّاتُ المرميّاتُ في خباءِ قادة الجُند

القيّناتُ الماجناتُ إذ يصْعدن أدراجَ السرَايا عند مُنتصف الليل

لهفةُ الفاجرات لحظةَ إطلالة السيّد الغائب

اللبائخُ المرنّخَةُ بالعطورِ وهي تتعشّقُ عرقَ العطفاتِ

حجرُ النّير وهو يمْلطُ الشعر عن سيقانِ المحظيّات

فُنونُ الرّهزِ والخاقْ باقْ والتفافِ السّاقِ بالسّاقْ

الرشاءُ الذي يغطس في مياه البئر

المِرود المُعفّر بالكُحل

رشفُ الشفاه من طيب الرِضاب

تذبيلُ الأحداقِ من شدّة الاشتهاء

الجلابيبُ الحريرية المشلوحةُ على الأرائك

رائحةُ الكسْتناء إذ تفيضُ مع الماء الدافق

الشيوخُ الدُرْدُ الذينَ عادوا لأطوار الرضاعة

اللثمُ الشهيّ للمقبّب البهيّ حين تسيل النزوات

الكواعبُ البكر في أوّل الافتضاضِ ورعشة الوصال

الفركُ بالأصابع لتويّج اللذّات عند الأرامل المحرومات

النهود المهيأة للقبض غير مدفوعة عن العض

الدبُّ على الذكورِ في الخانات آخر الليل بالسنارة والخيط

الدكّ العظيم والرجّ الهائل للبغايا المجرِّبات
الماشطاتُ المُتساحقات في الحمّام وقت فوران المياه
الحيزبونات اللواتي لم تتركهن الغُلمة لغير النزّ على الكِباش
الصفعُ على الوجهِ والقفا لمن رغب وترجّى من الولدان
خلطةُ القُرنفل وهي تحشى بأدبار الغلمانِ المعطوبة
المُؤاجِرون واللاَطة والمخنّثون المتهتكون في الغرف السرية
المسترجلات وهن يجرّبن« الكيرنج» لحظة الهيجان
وأصخت أيضا إلى :

الرفثُ والخناء من أفظع الكلام إذ يجري على الألسنِ بسلاسةً ، وتُقرّه آذان المتهتكين بالسمْع ، وأفواههم بالتهليل والتصفير ، وإلى الغَنْج والصُراخ والمُواء والشَهقات والشّخير والنّخيرِ والضحكات والآهاتِ والزّفير .....!!!

آهٍ لو رأيتني وأنا أرقصُ وأدورُ حول نفسي من اشتعال الرغبات ، وأدوخ وأتلوّى من روائح عيدان الندّ والبخور وهي تخترق الدماغ ، وتجوس في الخلايا فتوقظ الفتن النائمة منذ آلاف السنين ، فأتركُ وقاري ، وأتهتّك مع المجاميع ، ويملأُ الشيوخُ الثلاثة لي أقداح النبيذ المعتق ، السائغ الشرب ، الصافي كعين الديك ، حتى ما صرتُ أعي ما وصلتُ إليه من درجات السُكر والتعتعةِ والخبلِ والعربدة ، أو كأنّ الأمر كان مثل حُلمٍ سُحبت إليه ، أو خُيّل إليّ كل ما ذكرت وما

جرى ، وما دريت كم بقيت على هذا الحال ، حتى صحوت على نفسي وحيداً ومتروكا تملأ فضائي سحب الخيبة ، والمخطوطُ بين يديّ مفتوحا ، فقلت أكتب شيئاً مما شُفت قبل أن يضيعَ و يصبح نسياً منسيا . .!!

مدارات الحيرة

لا شيءَ يُشغلني سِوى الحَقيقة . . .

« بيرغسون»

كانَ الماضي حاضراً

كنتُ أشعرُ به يملأ عليَّ أيامي ، ويتسرّبُ بقوةٍ إلى لحظات حاضري ، وكانت هاديا تشعرُ بثقله وهو يأتيني بغتةً دونما استئذان ، وكثيراً ما جلستُ أحدّثها عنه ، أو كانت هي أيضاً تتناوب معي في تفريغ تلك الطاقة المهيمنة التي تسحبنا إلى ذلك الأرشيف الضخم المحفوظ عن أيامنا الغابرات ، لعلّنا نتطهّر منه إلى الأبد ، لكنْ هيهات . . . ، إنّ المرء يحتاج إلى قدراتٍ هائلة على المحو ، قبل أن يبدأ فعل التذكّر نفسَه ، محوُ كلّ ذلك الركام الهائل من الأحداث المحيطة بما نرغب بتذكره . حاولتُ مراراً أن أدرّب نفسي عليه ؛ لكنّه خذلني مرّات كثيرة ، عرفت الكثير عن هاديا ، وغابتْ عنّي أشياء أكثر ، أو لأكنْ دقيقا وأقول بأنني شعرت بأنّها غيّبت قصدا ، وأصبحت غائمة الملامح ، لقد اختلطت بنساءٍ أخريات أحيانا جئن من أمكنة وأزمنة شتّى ، وظهرت في أحيان أخرى جلّية وخالصة لي من دون العالمين .

مرّة حدثتها عن قلقي الوجودي أو تبدلاتي العاصفة بين الإلحادِ والإيمان ، لا أدري أين كنّا حينئذ ، ربما في إحدى عربات القطار الذاهب إلى القيروان ، إذ ذهبنا مرّةً لزيارتها ليومٍ أو بعض يوم . الأمرُ يبدو لي الآن مثل مشاهد ضبابية الملامح من فيلمٍ سينمائي ، وحيدين كنّا أو هكذا خيل إلينا ، حينما انثالت الذكرياتُ ، وقد حدثتها كيف أنني ومنذ سنّ العاشرة ، كنتُ أحرص على الذهاب إلى الجامع لحضور الصلوات

،كان صوتُ خالي الشجيّ وهو يؤذن لصلاة الفجر ، أو يقرأ الأذكار والصلوات على النبيّ ، يسحبني من تحت اللحاف بسلاسة ، لأتوضأ وألتحق بالجماعة ، وكنت أتساءلُ كثيرا عن الله في عليائهِ ، و أدعوه أن يجعلني مثل خالي حينما أكبر ، شيخاً يستمعُ له الناس ويوقّروه .

أذكرُ أنّ المعلم كان يسألنا في الحصص الأولى للتربية الإسلامية :

من صنع الطاولة التي أمامنا ؟

فنرد عليه بأصواتٍ عاليةٍ متنافرة :

- النجار .

- فمن خلق النجار؟

كان الجواب حاضرا : الله ، بعدها كرّر أمثلةً كثيرة مثل :

من أي شيءٍ صُنعت الطاولة ؟

- من الخشب .

- ومن أين يأتي الخشب ؟

- من الأشجار .

ومن خلق الأشجار ؟

- الله .

كنا ننتهي دوما إلى الجواب النهائي هذا ، وكان يُحذّرنا قائلاً :

- لا تسألوا بعد ذلك أي سؤال ، ومن شعرَ في رأسه بأسئلةٍ غريبةٍ فإنّها من الشيطان الرجيم ، فليستغفر الله العظيم . .!

وحدث أن تسرّب السؤالُ الممنوعُ إلى رأسي الصغير فأسكته ،

وجاءت سنوات أخرى ، كبرت فيها الأسئلة ، وبدأت مثل الفئران تسمّم لي رأسي و تنقر ما تبقى من جدران طمأنينتي .

قلت لها إنّ الحكايات التي كان يرويها خالي الشيخ أحمد عن الجنة في مضافة أبي ليلاً كانت تقعدني على عتبة الباب طويلا ، أسترق السمع ، أو أتجرأ فألتصق بجانب الجدار ، وأرى أنهار العسل واللبن وهي تجري صافية ، والحوريات بأيديهن المعازف ، سحبنني إلى سبعين قصراً من زُبُرْجدٍ وياقوت ، وأرضٍ حصباؤها من الذهب والبللور ، وكانت ليالٍ أخرى مخصّصةً للحكايات المخيفة عن أنواع العذاب في جهنم ، وهي تشوي الجلود ، و ملائكة النار بأيديهم أعمدة مدببة من الحديد ، وهي تخترق الأدبار وتخرج من الرأس ، فألتجىء آخر الليل إلى لحافي أرتجف ، وأبكي خشية أن أدخل النار وأصبح مثل السفود . .!

حدثت هاديا عن عوالمي الصغيرة التي كبرت ، وعن تلك الأفكار التي تسربت عبر الكتب والنقاشات فيما بعد فاجتاحت كياني ، وجعلتني أستيقظُ ذات صباحٍ ، وقد أشرق قلبي بالخواء . . .!

استغربت هاديا وصفي ذلك بالإشراق ، وحرْتُ كيف أشرح لامرأة تقيةٍ مثلها تلك الحالة التي استقيظت عليها بالضبط ، وقد تخلصت من عبءٍ عظيم ، فلا عقاب ولا حساب بعد اليوم ، ولا جنّة أطمعُ بها ولا نارٌ أرتعد من خشيتها ، ولا الثعبان الأقرع الذي يطلّ عليّ في القبر ساعة الموت :

« كانَ خواءً غريباً ، شيءٌ يشبهُ الفقد ، وأنا في مهبّ الريح ، وحيداً أواجهُ العالم ، لا إلاه معي يحميني ، ولا رسل يشفعون لي ، رضيت بأنْ أخوض معاركي وحيدا مثل دون كيشوت ، بقيتُ زمناً في ذلك المقام ، حتى عادت الفئران من جديد تقرضُ تلك الحجب التي رانَتْ على قلبي ، وكما لو أنني في كهفٍ عميقٍ سُدّ بابه ، رأيتُ من ظلمتي شيئاً مثل الشُعاع ، و رأيتك يا هاديا تأتين وبيدك شمعة ، وأنت تقولين لي :

– قيس تعال معي . . آن أوان الخروج . . .!

أنا سليلة الأولياء

لستُ مثلك يا قيس ، لم ينفذ السمّ إلى أفكاري قط ، كنت أشعر بأنني محروسة من قوىً خفية طيّبة تلاحقني كظلي ، منذ أول الصبى ، وحتى في سنوات دراستي الجامعية

ذلك ما همست لي به في ذلك القطار ، الذي كان ينهب السكة الحديد باتجاه ما تبقى من آثار الموحدين ، والمرابطين ، وأحفاد الهلاليين ، وقبائل البربر ، وأذكر أيضا أنها أخرجتْ من حقيبتها الصغيرة صورةً بالأسود والأبيض ، وقالت انظر من هذه ؟

كانت لفتاةٍ في أول العشرينيات تلبس حجابا وتشبهها .

قلت : كأنها أنت قبل سنوات أو ربما إحدى أخواتك ؟

قالت : بل هي أنا قبل أن أخلع الحجاب أو يمنعونني من لبسه ، وراحت تستذكر الكثير من الأحداث ، بعضها سمعته في تلك الجلسة في القطار ، وبعضه ونحن نتجول بين بقايا آثار من مرّ على القيروان من الأقوام ، وربما سمعت منها أشياء غيرها في امكنةٍ أخرى وأزمنةٍ مَنسية ، وجلساتٍ لا أذكر منها غير وجه هاديا وهو يشرق بالكلام ، أو الضحك ، أو التأمل العميق ، أو الحزن الذي بقي معتّقا منذ غادر أجدادها« الزاهرة» قسراً ، وودعوا آخر ملامح الجنة الأندلسية ، فيما المراكب تتهادى بهم نحو ارض افريقيا .

. . . أُمّي أول من قادني إلى تلك الأجواء ،إذ جعلتني أحضر مجالس الذكر ، والحرص على زيارة مقام سيدي الشاذلي كلّ جمعة لقراءة القرآن والأوراد والدعاء ، وكانت تحدثني عن زاوية جدي بالقيروان التي ورثها عن أجداده ، إذ كان يأتيها القصّادُ من كل الفجاج ، وعلمتُ منها أنه رحل وهي طفلة لكنها تتلمذتْ على ما في الزاوية من كتب . . . ، ثم إنني كنت أحرصُ دوما على الصلوات وأداء العبادات ، ولهذا رغبت أن أتعلّم الشريعة في الزيتونة لأدرّسها للطلبة .

كانت الدولةُ في مواجهات تتصاعد أحيانا ، أو تخفت مع أعضاء حزب النهضة عندنا أي من يسمّوْن عندكم «جماعة الاخوان المسلمين» ، و كنت من القريبات إليهم في الجامعة ، لا بحكم التوافق السياسي بل بما نلتقي عليه من أفكار تعلي من شأن الدين ، وتحضّ

على مكارم الأخلاق ، وأحياناً أشارك في مظاهراتهم واعتصاماتهم ؛ لم أكن وحدي ، بل والكثير من المستقلين والقوميين ، وحين انتهت تلك الفترة الربيعية بينهم وبين السلطات ، صرت محطّ الأنظار والمضايقات ، ولا أقول إنني مُنِعتُ من لبس الحجاب وحدي ، بل صار الأمر قانوناً يسري على الجميع ، وهكذا لن ترى اليوم في الزيتونة أو الجامعات والمدارس والمؤسسات الحكومية من ترتدي الحجاب ، ويا ليت الأمرَ بقي مقصوراً على الحجاب بل إن المناهج في الشريعة قد عُريّت أيضا من مضامينها وأصبحت مثل« الميني جيب» . .!

مرّة جاءت إلينا طالبة فلسطينية محجّبة في بعثة دراسية ، ولم تكن تعلم بأمر المنع شيئا ، حتى جاء من يقول لها في قاعة الدرس أمام الجميع وبكل حزم :

– يلزمك تنحي الحجاب أو تتركي الدراسة . . .!

ولّما ظهر لها أنها الوحيدة ، فكّرتْ بالأمر طويلاً ، فخلعت الحجاب ، ولكنّها لم تستطع ان تواصل دراستها ، قالت لي مرة إنّها تشعر كما لو أنها تسير عارية بدون الحجاب .

قالت : إذا كان الله سيغفر لي ذلك ؛ فإن والدي لن يفعل ، ثم قفلت عائدة إلى فلسطين . . كان أمرا يخصّها وحدها ولم تستطع أن تتأقلم معه .

مرة قلت لك إن البوليس طلبني من أجلك ، هي أسئلة متكررة اعتدت عليها ، يريدون أن يتأكدوا من أمرك ، ويعرفوا كل صغيرة و

كبيرة عنك ، ولا بد سيطلبونك يوما لهذا الأمر ، فلا تقلق ، فأنت في النهاية ضيف هنا للدراسة والعودة ، المهم أن لا تكون«إخونجي» كما يدعونهم ، أو نصيراً لهم . هذا خطّ أحمر في هذه البلاد ، وتعرف أن ما يقع في الجزائر هذه الأيام من قتل متواصل باسم الدين ، والخوف من تصدير الثورة إلى هنا يبدو أمراً مرعبا للسلطات بل مبالغا به كما ترى ، ولكنّي أقول لك : تنحية الحجاب لم تؤثر عليّ بتاتاً ، ألم يقل الله تعالى بأنّه لا ينظر إلى أشكالنا بل إلى قلوبنا . .هذا امرٌ محسومٌ عندي ما دام أنه ما باليد حيلة ، وأحسب نفسي ممن قال فيه الله تعالى« إلا من أكره وقلبه مطمئن بالإيمان» ، رغم أن الأمر من جهة أخرى يبدو لي حرية شخصية فمن شاءت فلتسفر ،ومن شاءت فلتتحجّب «بالعقل مهوش بالسيف» ، الله غالب . . . .

ولكنهّم لم يعودوا يضايقونني مثل أول الأمر ،بعد أن تأكدوا أنني لست من أتباع«النهضة» أو تربطني بهم أي علاقة ، ثم إنّ لي أخاً قد وصل مراتب كبيرة في حزب الدولة ، ومن المؤكد أن أخوّتنا لن تذهب عند رفاقه هدراً .

لا مناصَ أبداً

من التبدّلات التي ظهرت عليك ، أو ستأتي فيما بعد ، لقد مررت بذلك من قبل ، قالت لي هاديا ذلك ذات يوم ثم صمتت ، و قلت لها إنني كلما قرأت صفحات من هذا المخطوط أحسست بشيء من الدوار ، يسحبني إلى عوالم عجيبة ، كأنني أرى ما يشبه كوابيس النائم المخمور ، أو أتوهّم حدوثها ، ومرة تأتيني مثل رؤىً ساطعة كضوء الفجر ، ثم إن فيه رموزاً وتمائم تناديني كي أجرّبها بالقول والعدد ، كأنّها أرواحٌ مأمورة تلحّ كي تحضر أو أسمح لها بالولوج إلى أعماقي ، وأشعر أحيانا بفحيحها يعربد في رأسي ، مع أنني بصراحة لا أؤمن بمثل هذه الخرافات . . ، ولكنّ ما يجري لي شيء محيّر . .!!

وقالت إنها لا تستطيع أن تمنعني من ذلك ، فالأمر ليس بيدها ، ولا بيدي ، وإن قدر لي في علم الغيب شيء من الرؤى والتبدلات فإنني ذاهب إليه لا محالة !

و راحت تأكلني الحيرة مما قالت ، وسالتها بشيء من الاستفزاز : من أين لك كل هذه العلوم ، وأنا أعرف أن جامعة الزيتونة للشريعة وأصول الدين لا تعلم مثل هذا الكلام ، وأن «تستور» لا تقبل النساء في زواياها ولا حتى تحت قباب «الحلفاوين» ، ولا أعرف عنك غير أنك رفيقتي الأثيرة التي تشاركني كثيراً من لهواجس والتجوال في الأسواق وقراءة الكتب والنقاشات والطعام والشراب ، لكنك يا هاديا

لغز محير ، أحيانا لا أعرفك البتة ، كأنك سواك . . . .! كأنك نساء عديدات مجموعات في واحدة وقادمات من بلاد شتى . . . ، وأحيانا تبدين لي مجرد إمرأة في آخر العشرينيات ، ابنة المدينة العربي وتستور معا هادئة وحالمة ، أو ربما مجرد مُدرّسة تعلم التربية الدينية لطلبة المدينة في« المنزه السادس»[1] . .!!

قالت كأنها تعاتبني :

ألم أحدثك عن ذلك من قبل ، لم يمض وقت طويل لتنسى ، أم أن ما يحل بك من المعارف يمسح ما سبقه ، فتصبح صفحة بيضاء ، كلما امتلأت طمست من جديد . . . . أمرك عجيب !

ثم صمتت طويلا ، وأحسست كأنها تتفكر في شيء أمامها تراهُ ولا أراه ، ثم قالت :

تمهل قليلا . . واحذر العجلة . . ألم تقرأ في المخطوط أيضا «من استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه» . . .؟

١- المنزه السادس : حي حديث في العاصمة التونسية

أنا الذي ألحتُ

واستعجلت ، إذ أحسستُ بالجوعِ الأزليّ للمعرفة ، وبالعطش الذي لا ينتهي ، فقلت آوي إلى الشجرة ، وأقطفُ منها ولو ثمرة ، ثم أشرب من النهر ، ولو حفنة ، ولكنّ الأمر لم يكن بمثل هذه السلاسة ، فقد بدأت ُولم أشبع بعد أو أرتوي ، كانت سنوات إلحادي قد جعلتني فارغاً ، مثل ورقة بيضاء تنتظر من يسطر فوقها خطوطاً وكلمات جديدة ،وكانت هاديا قد قادتني إلى عوالم أخرى لم أختبرها من قبلٍ أو أعرف أنها موجودة أصلاً . قالت لي مرّة« أنت لا تعرف نفسك بعد ، فكيف تسأل عن ربك و ما لا ينبغي لك ، ألم تقرأ في المخطوط أن «من عرف نفسه عرف ربه» ، ولكني واصلت قراءتي فيه دون كللٍ حتى بدأت إشاراته تنفتح علي ، وفوق كلّ ذلك كانت ثمة كائناتٍ خفية تصبّ في نفسي شيئاً من الإيمان ، وتهمس لي بأنها معي ، وأنني أسير في الطريق القديم الصحيح بعيدا عما تجلّد فوقي من طبقات الضلال والخديعة ، كنت لأول مرة أشعر بأن الشيطان يتربص لي عند كل مفترق ، ويأتيني عن الشمال وعن اليمين ، ومن أمامي ومن خلفي هو وأتباعه ، ولكن كل ذلك بدا لي أحيانا وهماً ضعيفاً ، وكيداً لا أساس له ، خضت حربا شعواء في أعماقي ، وتخيلت كلمات كثيرة ، وجملاً ، وتصرفات من هاديا ربما لم تحدث أبدا ، ولكنه مقام التوهّم والخلط ، المهم في أمري أنني خرجت شيئا فشيئا من إشراق الخواء

إلى إشراق الإمتلاء ، بدأ العالم يتشكّل أمامي من جديد ، وكأنني ولدت للتو طفلا في جزيرة معزولة مثل حي بن يقظان ، تواطأ الكون من أجل أن يصب في أعماقي قطرات من المعرفة والنور ، وأنا أقول : هل من مزيد . .!

حتى جاء ذلك المساء ، وقد تقطّعت بيَ الأسباب وقلبي معلقٌ بين الكلمات ، وكنت مثل أشعث أغبر يمد يديه إلى السماء يا رب . . . يا رب :

أدْخلني في التَجربة

واحرسني من الشرير ،ودعني أرى ما لا يُرى ، سئمت من تسلسل الزمان ، ومحدودية المكان ، يخيل لي أن جسدي يحبس روحي في أسواره الطينية ، وهي تريد أن تفر منه إلى الفضاء المطلق ، كنتُ قد قررت أن أتبع فحيح الأحرف المتشابكة في المخطوط ، وأستعين بتلك الطلاسم ، وأرواحها المجندة .

قلت إن كان الأمر حقا أكون قد فعلت شيئا خارقا ، وإن بدا غير ذلك ، فقد كسبت التورط في التجربة .

أحضرت كميةً من البخور : حصى لبان ، وجاوى ، وحبّ حرمل ، وأشعلتها مع بضع شموع ، وبدأت أقرأ التعازيم والأوراد سبع مرات ، ورسمت الدوائر والأحرَف فيها والأرقام ، متجاهلاً ذلك النص

المتشابك في المخطوط ،الذي يبتدأ بما يشبه التحذير :

« من السهل أن تلجَ متاهاتي وترى ، ولكنّي لست ضامنا أن تخرج منها قط» .

ذلك أمر قادني أن أستمر في التحدي والقراءة ؛ حتى انقضى نصف الليل وأنا أتجرع القلق ، ولم أفق إلا في اليوم التالي مثقلا بالرؤى والكوابيس ، ووجدت هاديا أمامي ، وأنا أرتجف من شدة القشعريرة التي اجتاحتني وأصرخ :

الحقَّ أقولُ لكِ . .

رأيتُ من دكّ الحَنايا ، وأنشفَ مياه« زغوان» ففسدتْ قصورُ أريانة وخزندار . .!!

رأيتُ من خرقَ بالرماحِ جسدَ العالم ابن الآبار ثم صبّ عليه النفط ، وحرقه مع كتبهِ ومخطوطاته . .!!

رأيت شارل الخامس ملك أسبانيا ومعه مائة ألف مقاتل ، قد نزل بأسطولٍ عظيم في« حلق الوادي» ، ثم زحفَ على تونس فاستباحها بالقتل والسلب والنهب ... .!

آه لو رأيت خيله مربوطة بأعمدة جامع الزيتونة ، وروثها يدنّس المخطوطات الممزقة والمجلدات التي بقيت بعيدة عن الحرق والتمزيق . . ، ولم تسلم المصاحفُ من ضربات السيوف وطعنات الرماح فما

بالك بالبشر ، حتى أنهم نبشوا ضريح سيدي محرز وعاثوا فيه فساداً . . . .

رأيت مثل ذلك في« المهدية» حينما هجم عليها جنود نابولي وجنوه فقتلوا وحرقوا وسلبوا وهدموا وشردوا . .!!

رأيت الخيانات تترامى كما السهام ، حتى ثار السكانُ على أميرهم الغلبان الذي أتى لهم بالفرنجة ، فسملوا عينيه وجعلوا منه شحاذا يسترزق في الطرقات . . .!!

الحق أقول لك أنا قيس حوران ، رأيت كل ذلك رؤية من لا يكذب أهله . . . كنت هناك في أمكنة شتّى وأزمنةٍ متضاربةٍ . . تمرّ الأحداثُ أمامي مثل الفيلم الذي شاهدناه معا في سينما (أفريكا) وحق ربّي يا هاديا . .!

دُرتُ كالمجذوب

لستُ أعقل إن كان ذلك في الرؤيا أم في الحقيقة . .!

شعرت بأنني هلكت أو كدت ، فرُحْتُ أبحث عنكِ ذارعاً مدينة الحفصيين من باب البحر إلى باب الجزيرة ومن باب العسل حتى باب الخضرا ، ووصلت حتى باب الجديد وباب سويقة . . . لفّتني المدينة بتعرجاتها وأزقتها وأقواسها وقبابها ودروبها . . . .!!

لم أعرف كيفَ أجدك فأخبرك بكلّ ذلك ، قلت ربما تكونين

في « نادي الطاهر حداد »[1] فذهبتُ هناك دون جدوى ، وصلت حتى «بير الحجار[2]» ، «وبيت حسين» [3] وسألتُ عنك ولم يكن ثمّة خبر ،فوليّتُ صوب حانة« الشعب» ، وهناك كرعت كميّةً هائلة من السلتيا ، ولا أدري من أين طلعتِ لي حينها ، وكيف وجدتني على هذه الحال ،وأتيت بي هنا . .!

يا صديقتي ، يا آخر الأندلسيات ، إنْ أنا طلبتُكِ ابتعدتِ ، وإن أردتني وجدتني . . .« سامحيني تعّبتك معايا . .» .

نسيت أن أخبرك أيضاً بأنّني رأيتُ رجلا يدعى« طاطار» ، كانَ قد قتل ثمانمائة نفسٍ من خِيرة التوانسة ، ورماهم في بئر بالقصبة ، حتى ثار عليه الجُند ، وقطّعوا لحمه وطبخوه وأكلوه من شدّة الحنق . .!!

فقاطعتني قائلة : يزّي . .يزّي [4] . . . بالحَقْ دْماغك متخلوضْ . .!

ثم أشارت عليّ أن أهدأ قليلا ، وأشعلت شمعةً واحدةً ثم أطفأت أنوار الغرفة ، ووضعتْ رأسي في حِجْرها ، ودثرتني بغطاءٍ خفيف ، وأخذت تمسح جبهتي بيدٍ باردة ، فركنت إلى النعاس القاهر ، وكأنني سمعتها تقول : الليلة سأريك شيئا لم ترهُ من قبل حتى يطمئن بالك ، وصارت تُتمتم بكلام خفيض ، وتردد أحرفاً وتمائمَ غريبة ، حتى شعرتُ بظلال الحُمّى تهبط على رأسي ، وصليل أجراسٍ تُهاجمني .

١- ١ ، ٢ ، ٣ : امكنة داخل المدينة العتيقة

٤ - يزي : يكفي (لهجة تونسية)

فصرت أهذي ، فيما المشاهدُ تتالى أمام بصري مثل قطعان الغيوم ، ونظرت إليها وأنا في هذه الحال ، أو ربّما خُيّل إليّ كلّ ذلك ، فرأيتها تفيضُ بنورٍ مدوّخ ، ورأيتُ كأنّ المكان قد تبدل غير غرفتي ، وأنني تحت قبّة خضراء ، وأن هاديا غير التي أعرفُ ، وصوت يهتف في داخل رأسي :

« أنا السيّدةُ المنّوبية ، أحبّني ربّي واصطفاني ، وزيّنني وسقاني ، وأيّدني وجعلني زينة الأولياء ، و قُطبة الأقطاب . . . .»

ثم لم أعُدْ أفقه شيئاً مما تقول ، وبدأتْ نوبةٌ غرقت فيها في ظلمة كثيفة ، وصمْتٍ عميم ، حتى ظهرتْ لي من جديد ، تلبسُ ثوباً اخضر ، والنورُ يفيضُ من بين يديها ، وقد غطّتْ وجههَا بخمارٍ تراني منه ولا أراها . . .!

ثمّ أوقفتني أولّ العتبَاتِ

و قالت : لكلّ منا مقامٌ معلومٌ ، من جاوزه دون حقّه هلكْ... . .!!
فاطمأنّ قلبي لصوتها ، وقلت لها : كأنني أعرفُكِ من قبل ، أنت هاديا أو سعيدة أو كأنك فاطمة أمّي . . .؟
فتبسّمت ضاحكةً من قولي وقالت :

أنا هي ما تراني أنتَ ، وإنك الآن في مقام التوهّم ، فقمْ وتطّهر أولا بالاغتسال والذكر ، ثم اتبعني لعلّي أعطيكَ من كلّ شيءٍ علما .

وشعرتُ بأنني اغتسلتُ وتطيّبتُ ، وجرى على لساني أرقّ التسابيح ، ثمّ ظهرت لي قائلةً :

إنّ لي تسعةً وتسعين باباً ، من دخَلها فقد عرف ، ومن تغلّقتْ أَمامه فقد جَهِل ، واعلم بأنّك كلَّما سألتَ تجيءُ إليك الأجوبةُ تسعى ، فإنْ بدأتَ فلا تصمُتْ فتمتْ...!!

فظللْتُ مكاني واقفاً دهراً أو يزيد أُفكِّر بقولها ثم فِضْتُ كالنبع الدفاق :

من أَنتِ ... .؟

أَينكِ... .؟

فوق أم تحت ...؟

أم فوق الفوق و تحت التحتِ ... .؟

أأنتِ هنا أم هناك . .؟

وما هو الـ (هنا) . . وما هو الـ (هناك)... . .؟

أأنا ذاهبٌ إليكِ ... أَم قادمٌ من عِندك ... .؟

أم أنَّ المفارقة لم تحصل قطُّ... .؟

أأنتِ دليلتي ... . أم مُضيّعتي في المَهالك ... .؟

هل الجوَى الذي يُغلّفني من فيضِ أحزانك ... . .؟

هل الضياءُ الذي يُشعُّ حولي من نُورك...؟
هل الرغباتُ التي تُشعلني من نارك ...؟
مَنْ مرَّ عليكِ من قبلُ ... .؟
من سألَك ... . . وماذا أعطيتِه... . .؟
أأنا ميتٌ أم حيّ... . .؟
نائمٌ ... . . أم يقظان ... . ؟

وكنتُ كلما سألتُ تنفتحُ أمامي الأبوابُ واحداً واحداً ، وكلّ بابٍ يسْلمني للآخر ، فدخلتُ من الباب الأوّل ، فإذا خلفه وصيفة جمالها يُبْهر فقالت :

مرحباً بك في فضاءاتِ التكوين ... . .!

وأُريتُ هناكَ الجبال والبحار و الوديان والصخور والكواكب والأفلاك ، مخلّقة وغير مخلقةٍ ، في طورها الأوّل ، وشهدت ولادة الغيم والرعد والبرق والمطر و الثلج والبرد والرياح والأعاصير والزوابع ، وعُلّمت التمييز بين النور والظلمة ، والبريق واللهيب ، والبخار والدخان ، والوهج و الغبش والغشاوة والنصوع ، والسطوع واللمعان ، والإشعاع و البصيص ، والانطفاء و العتمة كلاً في درجاته... .!!

ثم طُويت بين يديّ المسافاتُ حتّى وصلت مغرب الشمسِ ، فوجدْتها تغطسُ في بُحيْرةٍ حمئة ، فتبعتها عبر الظلمات المتلاطمة حتى طلعت من بحر الضياء ، ووجدتُ عندها قوماً جبّارين ذوي

أجنحة ، يحملونها إلى كبد السماء ، وهي تتطاير بالشرر ، ثم يأتي غيرهم فيجرّونها بسلاسل وكلاليب نحو المغيب... .!!

ثم دخلتُ بابَ الخلْقِ

فوجدتهم أطواراً أطوارا ، منهم : النُطفة و العلَقةُ و المُضغة و الطفلُ وحتّى أرذل العمر من الذكور والإناث ، ومن شتّى الألوان والأجناس : الأبيضُ والأسودُ والأحمرُ والأصفرُ ، وما هو مُسمّر أو مُشقّر او مُصفّر ، وما هو دون ذلك أو أكثر... . .!!

ثمَّ عُرضَتْ عليّ الأممُ بالمِللِ والنِحَلِ مخلوطةً خلطاً ، وعرفتُ منهم الفينيقيين والقرطاجيين والكنعانيين والفراعنةَ والعمالقةَ وقومَ عادٍ وثمودٍ والرومَ والمغولَ والفرسَ واليونانَ والسودانَ والتركَ والبربرَ والأكرادَ والقرامطة َوالبرامكةَ والبراهمة َوالأغالبة والهندوسَ والسيخَ والمايا والنساطرةَ واليهودَ والنصارى والدهريين والسدوميين والأنباطَ والصنهاجيين والفاطميين والبابكيين والخراسانيين . . .وغيرهم كثير . .!

ثم إذا أنا في بابَ الحيواناتِ و الطُيورِ والزواحف والأسماكِ و الحشرات والكواسرِ والجوارح من كلّ صنف : ثيرانٌ وأسودٌ وفيلةٌ ونمورٌ وثعالبُ وقردةٌ وضباعٌ ودببةٌ ووعولٌ وكناغرُ وسناجبُ وأيائل وديناصورات وجِمالٌ وزرافاتٌ ، وسحالي وعظّايات وحياتٌ وحِرباوات ، وضفادعُ

وحيتانٌ وأخطبوطات وقُروشٌ وانقليس ودلافين وعجول البحر ، ونسورٌ وصقور وشواهينُ وخنافس وديدان ونحلٌ وزنابيرُ ، منها ما يخرجُ منهُ البيضُ أو ما يفقس أو ما يلد ... . .!!

فلمّا نُبّئت بأسماءِ هذه المخلوقات كلّها ووعيتها قلت لها :

حَسبي ... . .!!

فانفتح أمامي بابٌ آخر تقوم عليه وصيفةٌ جمالها يقهر وقالت : أهلاً بكَ في باب المُتع و المَلذات وإنّه لينفتحُ على سبعين قصراً في كلّ واحد منها سبعون لوناً من ألوان الشهوات منها ما يُلمس أو يُبصر أو يُسمع أو يُذاق أو يُشّم .....

وإذْ ولجتُ القصرَ الأول رأيت فيه رجالاً ونساءً عراة يتجاسدون في هيئات ما رأيت مثلها قطّ ، ولمحتُ إذ مررتُ قربهم ثغوراً مكنونةً ، ورقاباً شهية ، وأثداء ناضجة ، وأفخاذاً ريّانة ، وأردافاً عميمة... ، ونظرتُ فإذا السّراري والإماء والجَواري من كلّ جنسٍ ولونٍ يُجربنَ فنونَ الباه ، وإذا بغايا ومحصنات خبيرات غير مسافحات ، وإذا خلعاءُ ومخانثة ومتهتكون ورجالٌ فحول ... . .!!

قلت : حسْبي قد خَبرتُ كلّ هذا وضروبه من درجاتِ المُراودةِ والمُلامسةِ والمُباشرةِ والمُفاخَذةِ والمُباطنةِ والمُباضَعةِ والمُعاسفةِ والمُقارفةِ والمُواقعةِ والمُضاجعةِ والمُجامَعةِ والمُخادنةِ . . . .!!

فانفتحَ أمامي

عندئذ بابُ مُتعِ الأطعمة والأشربة ، قد وُضِعت في الجَفناتِ والقصاعِ والسدورِ والصحونِ والزبادي والكؤوسِ ، وإذا فيه من كلّ صنفٍ من الخُضَارِ و اللحومِ والبقولِ والثمراتِ والفاكهةِ والتوابل ، والخمورِ المعتّقة ، والأنبذة الرائقة ، والعسل المصفّى ، وزيتِ الزيتون ، والهيلِ و القرفة والزعفران والقرنفل والنعناع ، ومن الفواكه : الكرزُ والدراقُ والتينُ والعنبُ والأجاصُ والتمرُ والموزُ والخوخُ والتفاحُ والرمانُ... . . !

ورأيتُ ما يُعجنُ من الطبائخ والحلوى عجنا ، وما يُشوى شيّاً أو ما يتقلى بالسمْن ، أو ما يسلق ، أو يجفّف ، أو يبخر ، أو يُملّح ، أو يُسكّر ، أو يُخلل في أبهَى الأشكالِ ، ممّا تتمناه الأنفسُ ويُسرّ الناظرين ، من اشتهى شيئاً منه وجدهُ حاضراً أمامه في التوِّ ... !!

ثم قلت حسبي مما تذوقتُ ، فانفتح لي بابُ مُتع السماع ، وإذا بأصواتٍ من كلّ الطبقات تتشرّبها الآذانُ بالبهجةِ و الحُبورِ للطبولِ والدفوفِ والجُوزاتِ والفقاشاتِ والناياتِ والأبواقِ والمَزامير والمَجاوز والقِرب والسَناطر والمَزاهر والأعوادِ والقيثاراتِ والربابات والمَندولينات والطنابرِ ، ولكلّ ما يُنفخ ، أو يُوتر ، أو يُطرق ، أو يُدقّ من المعازف ،أو ما يُلحّن ويغنّى من أصواتِ البشرِ من كلّ الأمصار...!!

وكأنّني قد تشربتُ الألحانَ ، وصرتُ قادراً على أن أميّز المقامات مثل : البَياتي والحِجاز والحُسيني والماهُور والرَهاوي والنَهاوند والسِيكاه

والمَصمودي وسماَعي كُرْدْ . . . . ، وعلمتُ الفرقَ أيضاً بين التقسيم والترتيلِ والترويدِ والحادي والدورِ والزجَل والإنْشاد والطَقطوقةِ والمدائح والمواويلِ والهجيني والملحونِ والمالوفِ . . . .!!

ثمّ خرجتُ بعد كل ما سمعت ، ووجدتُني في بابِ الزّينة و اللباس ، من كل لون وقياس ، أوشحةً وثياباً وحُللَ وأردية ومآزرَ وشواشيَّ وقلنسوات من الصوفِ والقطْنِ والكتّانِ والديباج والقصَب وريشِ الطّواويس ، وكان ثمّة بسطٌ وزرابيّ وغارقُ وألحفةٌ ومفارشُ وثيرة ، من يُلامسها لا يرغبُ بالمفارقة...!!

ورأيتُ الجواهرَ والحليّ من كل نوعٍ وشكلٍ : أقراطٌ وأطواقٌ وتيجانٌ وقلائدُ وخواتم وخلاخيل من الذّهب والفضّةِ ، وما هو مُطعّم بفُصوص العقيق والياقوت والزُمرّدِ والجَزع واليَشْبِ والزُبرجد وعيْن الهرّ وحجَرِ الدّم والفيروز والعاج واللؤلؤ والماسِ . .!!

ثم عُرضَتْ عليّ الألوانُ ، فميّزتُ منها ألفَ ألفَ لونٍ كلاًّ بدرجاتٍ متقاربة ، لكنها ليستْ بالأحمر أو الأصفر أو الأزرق أو الأخضر أو الأبيض أو الأسود فحسب صافيةً ، بل يتشرّب بعضها بعضاً ويتعشّقُ ويتماهى ويشفّ ويشوب ويترقرق حتى تأتي بألوانٍ جديدةٍ تُذهل الأبصار لروعتها وفرادة عنصرها . . !

ثم دخلتُ بعدها مقاصيرَ مزدحمة بالمُتع والمَلذات ، وعُرضت عليّ طِيبُ الروائحِ والعطورِ والبخور والعود والدهون والرشوش ، من كلّ صنفٍ ، لا أكادُ أملكُ لها وصفاً ، فهي مغموسةٌ بأصناف لا تُحصى من الورود

والأزهار والأعشاب ، أو مقطّرةٌ أو مبخّرة تنسم بعبقها الملائكي الذي يُشمّ ، ولا تقدر الكلمات على الإتيان بوصفه ، فتنتشي منه القلوبُ والصدور . .!

ثم قادَني حدْسي إلى أبوابٍ عظيمة تخبئُ خلفها أسرارَ العلوم والحِكمةِ والفَلسفة والآدابِ ، فيها رفوفٌ لا تنتهي من الكتبَ والمخطوطات والصَحائف من جلودِ الغُزلان والبرديات والألواح والأختام والرُقمِ ، التي تزخرُ بعلومِ الأوّلين والآخرين ممّا ينفعُ الناس أو يبيدهم... . .!!!

ورأيتُ علماءَ الخيمياء منهمكين في التجّارب ، وبين أيديهم القواريرُ والمخابيرُ و الموازينُ والمَنافيخ والأنابيب والأَنابيقُ ، وقد امتلأت الرفوفُ والخزائنُ خلفَهم بالمعادن والأحماض والأملاح : رصاصٌ و خارصين وصوّان ونحاسٌ ونفطٌ وبلّور وقطران وفحم ٌوفخّار و جلّيز وأحجار مغناطيس ... ، وأدويةٍ وسمّ زعاف... !!

وظهرَ لي ما لا يعدّ من العلماء و الفلاسفة والحُكماء والمَناطقة والشُعراء والمُتكلمين والمؤرخين والفُقهاء والجُغرافيين والقصّاصين والحكّائين والحُواة..... ، فمنهم من كانَ يكتبُ أو يقرأُ أو يجادلُ أو يرسمُ أو يقيسُ أو يفصل ، أو يضعُ السُنن ، أو يشرّع النواميس ، ومنهم من كان يميّز بين شعبِ العلوم والسحرِ والأباطيلِ والأسرارِ والشطحاتِ والرموزِ والأسرار والزندقاتِ والمَخاريقِ ، ولم يكن أحدٌ منهم ينتبه لأحدٍ فلكلّ شأنٌ يُغنيه..... .!!

حتى وصلتُ إلى أبوابٍ و مداخلَ أخرى ، عجبتُ لأنّها أُقيمت للحزن والهم والشرور والحروب والشقاق ، وكان عددها يزيد على أربعين باباً ، خلف كلّ باب أربعونَ مقصورةً قد عُرضت فيها ألوانُ العذاب ممّا يَشيبُ لهوله الولدانُ : كالحرْق والخرْق والخزق والسلق والفقأ والخلع والفلْع واللسع والكسر والسلخ والسمْط والمطّ والشقّ والشرْم والقدّ والدقّ والسَحل والتفتيت والسحْق والهرس ... .!!

وأُريت أقبيةً خُصّصت لأدوات الحرب والقتل ، ما يُذهل النفوس ، فرأيتُ أكداساً من السيوف والرماح والتُروس والنبال والخناجر والفؤوس والدبابيس والدرَقات والسكاكين والجنازير والأقواس والحبال والمنجنيقات... .!!

فكدت أهرب من هول كل ما رأيت ، وإذ بصوت دليلتي ياتيني :

قد أكملتَ التسعةَ والتسعين باباً ، وأعطيت من المعارف ما لم يُعط أحدٌ فأمسك الآن عن الأسئلة ، وعُدْ من حيث أتيت ، أو استقر فيما ترغب من الأبواب والطبقات ، فهي لك خالصة وأنّى شئتَ أقمْ... .!!

قلت : لقد آتيتني من كلّ شيءٍ حكمة مقطّرة ، غير أنّ لي سؤالاً واحداً لا أسألك بعدهُ أبداً...!!

قالت : كنت أدري بأنك لن تستطيع معي صبرا ، ولكن إن سألتني ندمت ... .!!

فظللت صامتاً دهراً أو يزيد ، أفكر في كلامها حتّى ما عدت أطيق السكوت ، فرحت أصرخُ بصوتٍ كالرعد :

ولكنْ ماذا بعد ؟

وهل من شيءٍ بعد كل ما رأيت وعرفت ؟

فإذا الأبوابُ كلّها قد انغلقت دوني ، ورأيتني واقفاً مكاني زمناً طويلاً أنتظر ردّها ، أو أنْ تطلّ عليّ من جديد ، حتى جاءني صوتٌ خفي ، يفح في أذني أن انظر خلفك ، فاستدرت إلى الوراء فإذا بسورٍ مهيبٍ ، ليس له أولٌ ولا آخر ، ولا يحاط بعلوّه أو انخفاضه ، وإذا له بابٌ ما رأيت مثله من كل ما سبق ، فبهتّ ، وقيل لي هو الباب المائة لم يدخلهُ أحدٌ من قبل ، وجاءني صوت دليلتي بعد ما قلتني طويلاً أن عد إلى الأبواب التسعة و التسعين أشرعها لك من جديد ، خير لك ، ولكن لا تسألني عن أشياء إن تبد لك تضلّك... .!!

وجاءني الصوت الخفي مرة أخرى أنه ما نهتك عن الباب المائة إلا أن تكون سيّدها ، وهي خلفه تنتظر من يقدر على الولوج ، ولسوف تحوزُ إن دخلته من الكنوز والمعارف فوق كل ما قد عرفت أضعافاً مضاعفةً ، فأكثر من الأسئلة حتى ينفتح لك الباب بأسرار ذلك... .!!

فبقيت أسعى بين الأبواب أحقاباً طويلة ، صامتاً حائراً ثم صرت أصرخ بصوت هائل :

تعالي إليّ... . أو قودي خطواتي إليك ...!!

أين أنتِ فقد عذبني الانتظار و التخفّي ... .؟

ألم يئن الأوان كي تكشفي لي الحجب فأراكِ...؟

أنا ظامئ رغم كل ما شربت . . .!
جائعٌ رغم كل ما أكلت . . .!
عريان رغم كل ما لبست . . . !
تائهٌ رغم كل ما وجدت ... . .!
أريدُك أنتِ أنتِ وليس ظلالك ... .!!
فأينكِ ... . وأيني ... . . وأين الأين ... . !!
و ماذا بعد كل ما رأيت . . . .
م... . .ا... . .ذ... . .ا..... . . . . . ب.....ع.....د... .؟

فهتفَ بي صوتٌ

« أمرٌ كانَ محبتي لكَ
وأمرٌ يكون تَراني
وأمرٌ لا يكون لا تعرفني معرفةً أبداً . .»

وإذا بالباب المائة ، قد انفتح لي ، فرحت أركض إلى الداخل وقد أكلتني اللهفةُ ، وطارَ بي بُراقُ الشوقِ ، فانغلق البابُ ورائي ، ونظرتُ فإذا أنا في خلاءٍ لا يُحدّ ، وقد أطبقت عليّ ظلالُ الخسارةِ واليتم والخذلان ، والفجيعةِ والندم والهجران ، وإذا أنا جاهلٌ لا أكاد أفقه شيئاً ، قد أنسيت كلّ ما عُلّمت ، فنظرتُ خلفي كي أعود فلم يكن غير الرمال تجرّ أذيالها باتجاه الأفق ، والعماءُ ينشرُ جيوشه في الفضاء ،

فجلست مكاني وحيداً أبكي . . . !

حتى خُيّل إلي أنني انتبهت من رؤياي ، فإذا امرأة نورانية ما رأيتها من قبل ، وكأنها أجمل النساء طرّا ، تطلُّ عليّ مبتسمةً من عَلٍ وهي تقول :

الحقيقة دقيقة . .

ثم أضافت :« طرقها مَضيقة ، فيها نيران شهيقة ، ودونها مفازة عميقة . .»

قلت : زيديني أيتها العارفة . . !

قالت : ما صحّت المعرفةُ لمحدودٍ قطّ ، ولا لمعدود ولا لمجهود ولا لمكدودٍ .

قلت : وأين أجدها إن طلبتها ؟

حينئذ ابتسمت وأشارت إلى الفضاء ، فرأيت كأن حروفا نورانية قد أتت مثل الحمائم ، فتشكلت أمام ناظري فقرأت منها قبل أن تنوس وتزول :

ما أشدّ الضلال بالإشارات . . !

ولكنّ المعرفة وراء الوراء . . .

وراء الأسرار . . .

وراء الأخبار . . .

وراء الإدراك . . .

ثم رأيتُ نورها وقد تحول إلى عتمة كثيفة ، والحيرةُ تنهشني من كل جانب ، ولا أملك لتيهي مخرجا . . ، وبينما أنا كذلك إذ رأيتها وقد أفاضت عليّ بنورها من جديد ، وقالت كأنّها تعاتبني : ألم تقنع بعد ؟

فقلت : بلى ولكن ليطمئن قلبي

فقالت وكأنها تودعني :

بقيةُ القصّةِ مع القصّاص

فاقنع بما رشح إليك منها ، ما دمت تتلجلجُ بين مراتب الرؤيا والجذبِ والحرمان ، فإن اجتهدت نلتَ ، وإن قصّرت هلكتَ . .!!

ثم ناولتني المخطوط ،فرأيتُ أحرفهُ تهجُّ منه هجّاً ، و تتطايرُ ، مثل أسرابِ النحْلِ في طِراده ، و جاء بعضُها يلسعُني ، فصرختُ من فرط الألم ، حتى انتبهتُ ، ووجدتني متمدداً على سريري ، وغارقاً في عرقي ، والمخطوطُ بين يديّ ، ففتحتهُ ، وألفيتُ حروفه قد طُمست تماماً ، وكأنّه ما كان يوماً مرقوماً بالخطّ ، ولا تبلل بالحبر وعرق النُسّاخ والقرّاء ، وذلك آخر عهدي به . .!

صرتُ غريباً . . .

نفسي هي أولّ من أنكرتني ، بدأتُ بالرؤى والكوابيس ، وانتهيت بطول التفكير ، والانسياق مع الخيال ، و التوهم المتواصل ، حتى ركنتُ إلى الجلوس في البيت ، وترك الدروس في الجامعة ، رغم أنني كنتُ في سنتي الأخيرة ، أعترف بأنّ هاديا بذلت قصارى جهدها لإعادتي إلى ما كنت عليه ، ولكنّي أصبحتُ رجلاً لا يُطاق ، كنت مريضا أكثر الوقت ، أو منحلّ الجسد ، قد هاجمتني الكآبة ، والرغبة بالعزلة ، و كنّا على وشك أن نعلن خطوبتنا ، أو هكذا خيل إليّ ، لكنّها فضلت أن أعود إلى حوران لعليّ أشفى ، وأستعيد نفسي التائهة ، ويبدو أنني في لحظات صفاء وعدتها بالعودة ، وتعاهدنا على الزواج ، بدت لي علاقتنا مزيجاً غريباً من الصداقة والحنوّ والحبّ والسكينة ودرجات الوله والتودّد ، لم نشأ معا أن نضعها في قالب ما ونطلق عليها التسميات ، غير أنّ الذي أذكره اتفاقنا على أن لا تفرقنا تصاريف الزمان ، وأن تأتي معي إلى حوران ، أو أبقى هناك معها ، أو نغادر تونس معاً إلى أصقاع العالم ، ليست الأمكنة مهمةً ، بل أن نبقى معا إلى الأبد . . .!

ولكني لست متأكدا من شيء ، أعطب تعاقب الأيام نصف ذاكرتي ، وتوكّلت القراءات بالنصف الآخر ، وكيف يعوّل المرءُ على ذاكرةٍ مهترئةٍ لروح هائمة . .

حقا . . . لست أدري إن كان حدث معي كل ذلك ، وكنت هناك في يوم من الأيام وجرى لي ما جرى . .!

أم أنني نائمٌ الآنَ أغطّ في حُلم لم أستيقظ منه . .!

لست أدري . . .!!

ولكنْ أيّ غفرانٍ

يُرتجى لي بعد كلّ ما رأيتُ وعرفتُ

وضللتُ و نسيت . .!

مصائر معلّقة :

قيس حوران :

عاد إلى الأردن ، وأدخل مستشفى الأمراض النفسية أول الأمر ، شفي وتزوج بشكل تقليدي ، يعمل معلماً للتاريخ في إحدى مدارس قرى معان ، متقلب الاطوار ويحب التأمل و العزلة ، ولا يرغب بالحديث عن ماضيه لأحد .

سعيدة القابسي :

تعيش في باريس ، وتدرّس الفلسفة في إحدى جامعاتها ، تزوجت من صحفي فرنسي ثم انفصلت عنه ، وتنشط في مجال حقوق الإنسان وإقلاق السلطات .

هاديا الزاهري :

يقال إنها من هلوسات قيس ولم توجد قط ، ولكن ثمة إشارات إلى أنها تعيش اليوم في تونس العاصمة ، تركت التدريس بعد أن تزوجت من شخصية دبلوماسية نافذة ، وتعمل أحيانا في مجال الإصلاح الاجتماعي .

طلبة الزيتونة الشوام :

بعضهم أصبح معلما في المدارس ، وآخرون اختاروا العمل في التجارة ، وعبد الرحمن أكمل دراسة الماجستير في الشريعة وتزوج ، و صار قياديا في أحد الأحزاب الإسلامية في بلاد الشام .

الطيب بن محمود :

عاد إلى« الكاف» وعمل مدرسا بعد تخرجه ، رجع إلى العاصمة وأقام فيها مطورا تجربته الصحفية ، أصدر ديوانه اليتيم ، تزوج من صحفية تونسية ، يعيش في دبي حالياً و يعمل في مجال الإعلام .

يحيى القيسي :

كاتب أردني ، أقام في تونس بداية التسعينات نحو ثلاث سنوات ، التقى قيس حوران صدفة أثناء عمله الصحفي فوثق به ، وأخذ منه في لحظات صفاء الكثير مما ورد في الرواية شفويا وكتابيا ، ليس متأكدا من مصائر الشخصيات التي أوردها ، وبعض الأحداث ، و يتمنى على من يعرف عنها شيئا أن يكتب إليه .